

علي الطنطاوي

بِغَيْرِ

ذَكَرَ بَابَ وَمَشَاهِدَات

المكتبة الازهرية

جميع الحقوق محفوظة
يمنع النقل والترجمة والانتباس
للاذاعة والمسرح الا بإذن خطي من المؤلف

الطبعة الأولى
١٣٨٠ - ١٩٦٠

مطابع دار المنير بدمشق
١١٠١١

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده نستعينه وتوكل عليه نستغفره
ونعوذ بالله من شره ورأفنا وسيئات أعمالنا ،
اللهم اجعل عملي هذا خالصا لك ،
اللهم اني أسألك أن تتفقد به ، وأن تشيبي علي ،
وصل اللهم على سيدنا محمد معكم الخير وعلى آله
وصحبه ومن تبعهم باحسان .

فلم بغداد

كتبت سنة ١٩٥٦

لما بدت لي بغداد من كوة الطيارة^(١) ، تلوح في وهج الظهيرة ، كأنها حلم الحرية بلوح لـجين ، أقبلت انظر اليها من خلال الزجاج ، وأقبل الماضي ، ماضي بغداد ، ينظر الي من خلال السنين ، وارتدت بي الذكرى الفأ وخمسة مرحلة في طريق الزمان ، ثم وقفت بي على درب القرون ، أراها وهي تمر بي قرناً بعد قرن ، وأساعد مواكب الأيام وهي تجوز بي موكباً إثر موكب ، كـ (فِلْم) في سينما ، تعرض فصوله (قصة بغداد) ، ولو كنت أستطيع أن أعرض (الفلم) كله ، لأحسبتم أنكم تعيشون معي في قلب التاريخ ، وتحبون معي (أشخاصاً) في هذه القصة العبقريّة التأليف والاخراج ، ولكن الفلم طويل ، فاكتفوا بهذه اللقطات الحاطفة من هذا (الفلم) العظيم .

نحن الآن في مطلع الفلم ، قبل الف وأربعين سنة ، وبغداد قرية صغيرة ، عندها سوق للغنم والجمال ، ومن حولها السواد فيه النخيل ، ومن وراء السواد هذه الصحراء التي تتلظى فيها الرمال ،

(١) في زيارتي الاخيرة لبغداد سنة ١٩٥٤

وتترقد الشمس ، ويبدو من كل جهة فيها وجه الموت يتربص لكل قادم عليها من غير أهلها الذين أنسوا بالموت حتى رأوا فيه الحياة ، يعيشون عيش الأسد في آجامها ، يُدُلُّون بِثُل ظفر الأسد وثابه ، ويطوون صدورهم على مثل جرائه وراثبه ، لذلك كانوا يجتربون ويتقانون ، اذا لم يجدوا من يجاربون ويقتلون ، لا شريعة لهم إلا شريعة القوة ، ولا حكم إلا حكم السيف .

وفي جوار هذه القرية الحاملة كانت تقوم المدائن ، قرارة كسرى شاهنشاه ، وفيها عرشه وإوانه ، العجم يسجدون بين يديه ويكفرون^(١) له ، والعرب يكبرون مكانه ويخافون سلطانه ، ويسمون عاملاً من عماله (هو مدير ناحية الخيرة ، النعمان بن المنذر) ، يسمونه ملك العرب .

وبدور الفلم ، ويبدأ فيه فصل جديد .

انظروا ، لقد ماج هذا البحر من القبائل التي كانت تسكن الصحراء ، وتحرك واضطرب ، ثم جرى فيه تيار قوي يجرف في طريقه كل شيء ، لقد اتحد القوم المنفردون ، ونبذوا راياتهم وهي شتى ليحملوا راية واحدة جديدة ، هي راية القرآن ، يقودهم نحتها (المثنى بن حارثة) فهي بغداد .

وها هم اولاء يتقدمون ، ويتقدمون ، ويتقدمون ، لقد كانت العجب العاجب ، هؤلاء البدو الجاهلون ، ملكوا ملك كسرى ، فلا كسرى بعد اليوم ، وشادوا في مكانه ملكاً أنفع منه وأبقى ...

(١) ينعنون تعظيماً .

ويدور الفلم ، وتظهر صورة ثانية لبغداد .

نحن في سنة ١٤٥ للهجرة ، وقد اندثرت القرية وذهب بها ريب الزمان ، وعادت الارض مراتع وبساتين ، وكان صباح يوم صائف من أيام الحريف ، فوقف بهذه الساحة ركب من الناس ونزل رجال يذرعون الأرض ، ويقسرون طولها والعرض ، فسألت : من هؤلاء ؟ وماذا يصنعون ؟

قالوا : ألا تعرف من هؤلاء ؟ يا عجباً ! هذا هو الرجل الذي عاش ثلثي حياته عالماً مغموراً لا يدري به أحد ، وعاش ثلثها الثالث وهو الحاكم المطلق ، في نصف المعمور من الأرض ، من أقصى المغرب الى أقصى المشرق ، هذا هو الرجل الفولاذي الصلد ، الذي بنى دولة عاشت واباتها وشاراتها ، واستمر ذكرها على المنايا أكثر من ثمانية سنة ، هذا (ابو جعفر المنصور) جاء يقيم ها هنا مدينة .

ولم يغتصب الرجل الحديدي ، ذراعاً واحداً من الأرض ، وما كان الغضب يوماً من صفات الخلفاء المسلمين حقاً ، بل اشترى الأرض من أصحابها بأكثر من ثمنها ، وأقام مدينته عليها .

لقد مر على هذا المشهد سنتان ، ودار الفلم دورة جديدة وإذا المدينة عامرة .

أترونها على الشط العربي لدجلة ؟ انما مدورة ، على هندسة مبتكرة ، ما في المدن شبيه لها إلا دهلي الجديدة (نيودلهي) اليوم ، لقد احتفلن بافتتاحها سنة ١٤٩ . وبلغت نفقات بنائها ١٨ مليون دينار . أتعرفون كم تبلغ من نفود هذه الأيام ؟ لقد ذكر المؤرخون أن الدينار كان يشتري به يومئذ تسعة عشر خروفاً ، وألف ومئتا رطل من التمر ،

وكانت أجرة العامل مدى ستة أشهر ديناراً واحداً ، فانظروا كم يساوي مبلغ نية عشر مليون دينار من نقود هذه الأيام ^(١) ؟

وجعلها مدورة لثلاث يكون بعض أنعامها أقرب اليه من بعض ، وجعل فيها مجلسه وأقام عليه ابواناً عليه قبة خضراء ، علوها ثمانون ذراعاً ، وجعل من المجلس الى الأرض الفضاء نفقاً (مرداباً) طوله فرسخان ، وبقيت هذه القبة وهي (كما يقول الخطيب البغدادي) تاج بغداد ، وعلم البلد ، ترى من أطرافها جميعاً ، حتى هوت في ليلة عاصفة من سنة ٥٣٢٩ أي بعد مائة وثمانين سنة .

ودار الفلم ، وظهرت صورة نائلة لبغداد .

لقد بلغت بغداد من عمرها عشر سنين فقط ، ولكننا شئت كما يشب الجني في قصة الف ليلة ، واستطاعت أن تقفز من فوق دجلة الى الضفة الأخرى ، فهل سمعتم بينت عشر سنين تقفز نهراً عرضة خمسمئة ذراع ؟

لقد أقام المهدي الرصافة ، فصارت بغداد بلدين : الكرخ من هنا (من جهة الشام) وفيها مدينة أبي جعفر المدورة ، والقبة الخضراء . والرصافة من هناك .

وتسكملت بغداد ، واتصل الشاطئان ، وامتدت الدور ، وتناوت القصور ، وسكرت بغداد بنجمة المجد والجاه والعلم والفن والغنى والسرور ، وجاء العصر الذهبي عصر الف ليلة وليلة ، عصر هارون الرشيد ، الذي قال للسهابة لما وآها : امطري حيث شئت فسيأتيني خراجك ، والذي كانت

(١) اذا كان الحرف اليوم بأربعة دنانير، فكل دينار يساوي اليوم ستة وسبعين ديناراً.

كلمته تمضي في الارض حتى تصل الى ابواب الصين ، وشواطئ الاطلنطي
لا يردّها شيء ، والذي ملك ما لم يملك قبله ملك قط ، وقام ليلة بصب الماء
على يد العالم أبي معاوية الضرير بعد ان عشاء معه على مائدته ، فقال للعالم
الضرير : أتدري من يصب الماء على يديك ؟ قال : لا . قال الخليفة
العظيم هارون الرشيد : أنا !

فهل ترونه اضرب العالم أو اهتز ؟ لا والله ، وبقي يغسل يديه وهو
يقول : إنما كرمتم العلم يا أمير المؤمنين .
هكذا كان ولو كنا يا سادة ، وهكذا كان العلماء .



لقد صارت بغداد أم المدن ، وحاضرة الخواضر ، وبلغت ما لم تبلغه
روما في سلطانها ، ولا القسطنطينية ولا المدائن ذات الإيوان ، لقد
غدت سيدة العالم والبلاد لها خول ، ما يظهر في بلدة طريف ولا ظريف من
ثمرات الأيدي ، ولا من نتائج الطبيعة ، ولا من حصاد الأدمغة ، إلا حمل
الى بغداد ، ولا يذبح نابغ في مشرق من الأرض ولا مغرب إلا أمّ بغداد ،
فالقوافل أبداً تتجه الى بغداد بكل ثمين وجميل ، تحمله اليها لتلقيه بين يديها
كما تحمل ماءها الأنهار من كل مكان لتصبه في البحر .
لقد تمت ، ولكن :

إذا تم أمر بدا نقصه توقّب زوالاً إذا قبل تمّ
لقد أصابتها عين الحسود ...
لقد حلت النكبة ببغداد ، ونزات ساحتها الحرب بوجهها الكالِح ،
ومنجلها الذي يحصد الاخضر واليابس .

انها الحرب الداخلية ، الحرب بين الولد المدال المترف وأخيه الجاد العامل ، بين بغداد التي تمس كعروس جمع لها الشباب والجمال والحسب والمال ، وبين (مرد) التي وقفت بقدمي الرجل الصلد المتكشف ، بين الأمين والمأمون .

انما إحدى الثمرات المرة لهذه الغرسة التي غرسها في تاريخنا معاوية رحمه الله حين عهد بالخلافة لابنه يزيد ، وعلّم الخلفاء بإثارة مصلحة الولد على مصالح الأمة ؛ للنظام الملكي في الحكم .

ولكن الغادة الشابة القوية لا تموت من الموضة العارضة مهما اشتدت ، ولقد برئت بغداد ، وعادت الى أبيها كما كانت عليه وأزمت .

ومضى الفلم ، وبدأت صورة لبغداد وهي على كرسي الولادة

لقد ولدت بغداد ، وكان الطبيب المولّد ، هو الخليفة الذي كان آية في قوة جسده ، ورجولته ، وآية في جهله وعاميته ، والذي أدخل جراثيم المرض الفتاك في جسد هذه الدولة القوية ، المعتمد الذي جاء بغلات الاتراك فجعلهم سادة الدولة ، فجر علينا مصائب ثمانية قرون .

لقد ولدت بغداد يا سادة ، ولدت بنتاً ولكنها جاءت جنية بنت جنية ، أعجوبة ولدتها أعجوبة ، وهل أعجب من مولودة تخرج من بد القابلة وهي ترقص وتغني وتكلم بسبع لغات ؟

ولم تكد تنتهي أفراح الولادة ، حتى كانت أيام الماتم

لقد ماتت الوليدة طفلة ، ماتت وهي في مثل عمر الفل ، ولكنها تركت في تاريخ الابداء عبثاً أطيب من أريج الفل ، تلك هي (سر من رأى)

(سامراء) التي لم تعش إلا ثمانياً وأربعين سنة فقط ، والتي بلغ سكانها مليونين ، على حين كان في بغداد أيضاً أكثر من مليونين ، ولن أحدثكم عن سامراء ، فافتحوا معيهم البلدان تروا طرفاً من ماضيها ، وافتحوا كتابي « في بلاد العرب » تروا طرفاً من حاضرها ، وانلوا ما قال البحتري في بركة قصر المتوكل ، لقد رأيت آثار البركة من عشرين سنة ، وقست قطرها فكان أكثر من مئتي خطوة . لقد مشينا فيها خمسة وعشرين كيلاً بالسيارة وما قطعنا نصف المدينة من هنا ، فماذا تكون مساحتها وعلى الشط الآخر من هناك مثل ذلك ؟ لقد مررنا بشوارع عرضه مئة ذراع ، مررنا فيه نحواً من ستة أكيال (كيلو مترات) ورأينا القصر الجعفري الذي قتل فيه المتوكل ، فإذا هو أكبر من مدينة سامراء الحاضرة ...

ماذا أقول لكم عن سر من رأى التي كانت أوسع رقعة من باريس اليوم ؟ عن عظمتها ؟ عن آثار مصنع الزجاج الملون العجيب فيها ؟ ومصنع اللهاش الذي أخرج من أقشته ما يزري بما على أجساد حسان هوليرد ؟

يا أيها القراء ، استعملكم بالله ، ان زرت العراق أن تجوزوا بسامراء ، فليس في آثار المجد الاسلامي ما هو أروع منها ، ولا في قصص الآثار العربية ما هو أحلى وأشجى من قصتها ، اللهم إلا (تاج محل) في (أغرا) عند دهلي . ومن عرف الالمانية يجد حديثها كاملاً في المجلدات التي وضعها عنها هرسفلد الالمانى^(١) .

★ ★ ★

(١) وهو الذي نقب عنها وكشف آثارها .

وهضى الفلم ، وبدأت صورة بغداد ، وقد وصلت الى ذروة مجدها وجلالها ، وحازت ما لم تحزه قبلها مدينة من المدن .
وهذا يوم واحد من أيام بغداد العظيمة ، ولست مستطيعاً أن أصور لكم كل ما كان في ذلك اليوم ، فهل وأبتم في السينما مشاهد تتويج الملكة في انكلترا ؟ إنني أؤكد لكم القول ان حفلات التتويج تكون حادثاً صغيراً إذا قيست بحفلات استقبال وفد قيصر القسطنطينية في بغداد أيام المقتدر .

لقد وقف مئة وستون ألف جندي ، بأكمل عدة وأفخر ثياب ، من خارج المدينة الى باب قصر التاج ، جنود من كل البلاد ، وكل الاجناس ، وأقيمت الاقواس والاعلام وسُئِلت المصابيح ، ومدّت النمازق والسجادات والبسط العجيبة على طول الطريق ، فبلغ عددها اثنتين وعشرين ألف قطعة سجاد ..

وخرج أهل بغداد جميعاً ، وقد زادوا عن ثلاثة ملايين ، الى الطرقات التي سيجتاز بها موكب الوفد ، فبلغت اجرة مجلس الرجل الواحد في الدكان أو على السطح عشرين درهماً ، أي أكثر من دينار .

ولبس قصر التاج حلة لا يمكن لقلم كاتب أن يصفها ، وحسبكم أن تعلموا ان عدد ما علق فيها من ستور الديباج المذهبة الطراز ، المصورة بأبداع ما أخرجته أيدي النقاش والمصورين والمطرزين في أرجاء الارض كان ثمانية وثلاثين ألف ستور .

ولا تحسبوا قصر التاج كما تعرفون من القصور ، لا ، ولا تظنوه كالخراء في غرناطة ، ولا فرساي في باريز ، كان فيه ثلاثة وعشرون قصراً ، كل واحد منها أكبر (كما وصفوا) من قصر عابدين في مصر .

وكان في اصطبل الحيل في القصر الف فرس ، خمسة على اليمين ،
عليها السرج المحلاة بالذهب والفضة ، وخمسة على اليسار بجلال الديباج
والبراقع الطوال ، وكل فرس أمام بيته بيد سائس بأجمل بزة .
ومروا بالوفد على حَيْر الوحوش^(١) المستأنسة ، وكان فيه مئة من
السباع ، خمسون عن يمين وخمسون عن يسار ، وفيه دار الفيلة .
ثم مروا به على قصر الفردوس ، وكان فيه بهو طوله ثلاثمئة ذراع قد
صفت فيه أنواع الأسلحة ، التي لم ير الراؤون مثلاً .
ثم دخلوا به دار نصر الحاجب ، فلما رأى الوفد عظمة المكان ،
وأبهة نصر حسبه الخليفة فركعوا وساموا ، فقبل لهم : كلا ، هذا
هو الحاجب .
ثم أدخلوهم على الوزير ابن الفرات ، وكان في مجلس في حديقة
القصر بين دجلة والبستان ، قد علقت فيه الستور ، ومدت الفرش ،
وكان شيء عجيب ، فيحسبه الخليفة فركعوا وساموا ، فقبل لهم ،
هذا هو الوزير .
ثم وصلوا إلى الخليفة ، واستقبلهم في دار الشجرة ، وهي شجرة من
الفضة وزنها ٥٠٠ ألف مثقال وبعضها من الذهب والجوهر ، لها غصون
وأوراق تيمس ميسان أغصان الشجر ، وعليها أطيار من الفضة تصفر وتتحرك
بحركات قدرت لها . وكان عدد خدام القصر المنبئين في الممرات والدهاليز
وعلى السطوح ، بألبسة عجيبة وزينة باغة ، سبعة آلاف خادم ، وكانت
الحجائب أكثر من خمسة .

(١) حير الوحوش حديقة الجوان ، واصل الحير البستان .

وكان يوم من أيام التاريخ .

★ ★ ★

ومضى الفلم ، وبدأت صورة بغداد وقد وشحت بالسواد ولبست
ثياب الحداد .

لقد ماتت بغداد بني العباس وكل حي الى مات ، وذهب شبابها وما
يدوم في الدنيا شباب ، واحترمت محاسنها وخربت أيدي الوحوش
البشرية من جند هولاء ، جاءت بهم خيانة الوزير ابن العلقمي ، فذل
الأعزة من أهلها ، وانتك المصون من أعراضها ، وذبح علماءها
وكبراؤها وأمرائها ، وأعمل السيف في أهلها أربعين يوماً ، فبلغ القتلى
أكثر من ألف ألف ، وألقيت كتبها في دجلة فأسودت منه مياهها حيال
الضفتين أباماً ، وذهب نتاج العقول ، وحصاد العبقريات ، وغرات
الأيدي الصانع ، وكانت مصيبة المصائب على الاسلام وأهله ، وغدت
بغداد خرائب وأطلالاً .

لسائل الدمع عن بغداد أخبار	فما وقوفك والاحباب قد ساروا
يا زائرين الى الزوراء لا تفقدوا	فما بذاك الحمى والدار ديار
تاج الخلافة والربع الذي شرفت	به المعالم قد عفاه افقار
أضحى لعطف البلى في ربه أثر	والدموع على الآثار آثار

★ ★ ★

وتوالت المصائب على بغداد ، ولكن البطولة التي صبها (محمد) في
عروق هذه الأمة لم تمت ، وقامت مصر الاسلامية تقف في وجه المغول

وحدها بعدما اجتاحتها بغداد وعصفت رياحهم بكل قطر ، ينفخ في أرواحها الحاسة ، ويعدها النصر ، ويسوقها الى القتال شيخ من الشام هو العز بن عبد السلام^(١) ، وانتصر الإسلام على المغول في وقعة عين جالوت ، وانقذت مصر والشام ، كما أنقذت فلسطين من الصليبيين لما رمتها أوروبا كلها عن قوس واحدة ، وكما ستقذ من إسرائيل عندما يقيض الله لها شيخاً كابن عبد السلام ، أو قائداً كصلاح الدين أو الظاهر بيبرس .

ونمضت بغداد من سقطتها ، ووقفت بغداد على قدميها .

وانقضى القلم ، وصورة بغداد بتاراتها وقباها ، ومعاهدنا ومدارسها ، وامتدادها وعمرانها ، تملأ أبصار المشاهدين ، وتعيش أبدأ في قلوبهم .
فسلام على بغداد ، على بغداد المنصور والرشيد ، على بغداد الأئمة والمحدثين ، على حاضرة الدنيا ومثابة الدين ، على بغداد الجديدة المتوثبة وملء أهابها العزم والإيمان ، على بغداد التي سنكتب قصتها مرة أخرى ، في صحائف القوة والعلم والمجد .

• • •

(١) انظر خبره في كتابي (رجال من التاريخ) .

من دمشق الى بغداد

كتبته سنة ١٩٣٦

لما جاورنا (أبا الشامات)^(١) وأصغرنا ، ونظرت بين يديّ وعن
يمني وعن شمالي ، فلم أجد إلا الصحراء الصامتة الرهيبة الموحشة ،
ورجعت دمشق التي أحببتها ولقيت فيها من يجيني ، وألفنا وتركنا في كل
بقعة منها قطعة من حياتي وطائفة من ذكرياتي ، قد اختفت وراء
الأفق ، وتضاءل (قاصيونها) وصغر حتى ما يبدو منه إلا خيال علويّ
يلوح في السماء ، له وميض ولمعات ، أحسست بلوعة الفراق فخفق
قلبي خفقاناً شديداً :

كان القلب ليلة قيل يغدى بليلي العامرية أو 'براح
قطاة غرها شرك فباتت تعالجه وقد علق الجناح

وخالطني حزن عميق وشعور مهمم ، أعرفه من نفسي كلما سافرت
سفرأ بعيداً (على كثرة ما أسافر وابتعد) شعور من يجد الموت
ويبصره بعينه !

ولم لا ؟ وهل الحياة إلا أن تقيم في المكان الذي تألف ، وترى
الناس الذين تحب ، وتصل ماضيك بحاضرهم بصورة تراها ، أو نغمة تسمعها ،
أو بقعة تحملها ؟

(١) في زيارتي الأولى لبغداد سنة ١٩٣٦ ، وأبو الشامات آخر مخفر سوري على
سيف الصحراء .

وهل يحيا المرء إلا في الأمكنة والوجوه ، وبالدكرات والآمال ؟
وهل الموت إلا أن ينبتر بما يحيط به ، وينقطع عن كل ما يعرف ،
ويقدم على بلد مجهول ، وحياة غريبة عنه ، لا عهد له بها ، ولا
نبأ عنده منها ؟

أوليس للانسان حياة ظاهرة في قيامه وقعوده ، وطعامه وشرابه ،
وجيئته وذهابه ، وحياة باطنة في أسكاره وذكرياته ، وآماله وآلامه ،
وميوله وعراطفه ؟

أو ليست حياته الباطنة هي الأصل وهي الأساس ، فلا يحيا إلا بها
ولا يقوم إلا عليها ، كما أن الشجرة لا تحيا إلا بجذورها الممتدة في جوف
الارض ، المختفية في بطن الترى ، فإذا انقطع المرء عن عادته ، وابتعد
عن أهله وصحابته ، لم ينفعه أنه لا يزال يقوم ويقعد ويأكل ويشرب ،
كما أن الشجرة لا تنفعها أغصانها وفروعها ، إذا هي بئت من أرضها ،
وفطعت من أصلها ، وفصلت عن جذورها .

وأحسب أن الله جلّ وعزّ ما قرن الموت بالإخراج من الديار ، وأجزل
ثواب المهاجرين في سبيل الله ، التاركين أوطانهم ابتغاء مرضاة الله ، إلا
لان الهجرة ضرب من ضروب الموت ولون من ألوانه ، فإنّ (تعددت
الالوان فالموت واحد) !

وازدحمت في نفسي صور حياتي في دمشق ، وحببت إلي أضعاف
ما كنت أحبها ، ومرت أمامي صور إخرتي وأهلي وإخواني ، وذكرت
سهراتنا البيقية ، ومجالسنا الادبية ، وهذه الحفلات الوداعية الكثيرة التي
تفضلت فأقامتها أسرة التعليم ، وجمعية التمدن الاسلامي ، والمدرسة التجارية

تكريماً لي قبل أن أعمل شيئاً أستحق عليه التكريم ، واخض عليّ من النعوت .
ما لبس فيّ ولا أستحق الاقل منه .

وذكرت من دمشق كل حبيب ليّ جميل في عيني ، فازددت بها تعلقاً ،
ووددت لو أنّي أبقيت فلم أذهب ولم أنغرب .

وكانت الصحراء قد امتدت من حولنا ، وأحدثت بنا ، وصرنا في قبضتها
لا شأن لنا ولا خطر ، وآضت هذه السيارات الفخمة التي كانت تملأ
الشارع بطوله وعرضه وكانت تعد وهي في دمشق شيئاً عظيماً ، أهون
على الصحراء من حبة رمل ! وضاعت في أرجائها فلم تعد شيئاً .
وكان قد بلغ مني الحزن ، وحزّت في نفسي لوعة الفراق ، فأغضت
عيني ورجعت الى نفسي ، حتى إذا استروحت فتحتها وجعلت أحدث في
هذه البادية ، فأرى السيارة تعدو فيها وتسرع حتى نحس كأنها تطوي
الارض طياً ، وأراها تلمث من التعب ، والبادية باقية على حالها ، كأننا
لم نقطع منها شبراً ، وكأننا بعدد في أماكننا .

ولست قريباً عن البوادي ، فقد عرفتها في رحلتنا (تلك) ^(١) الى مكة ،
وبقيت فيها عشرين يوماً ، ما من ساعة منها إلا وهي أشد من عشرة
أسفار الى بغداد ، ولكن هذه البادية (بادية الشام) ، تختلف عن جزيرة
العرب ، ففي الجزيرة مناظر متباينة ، وأراض مختلفة ، فيها الجبل وفيها
السهل ، وفيها الوعر وفيها الرمل ، وما في هذه إلا شيء واحد لا يكاد
يختلف أو يتغير ، أرض منبسطة ترابية قاحلة ، تمتد الى الافق ، كأنها
بحر ليس فيه ماء !

(١) اقرأ وصفها في كتابي (من لفحات الحرم) .

فكننا نقرأ ونتحدث لنقطع الصحراء بجديشنا ، فنقطع الصحراء بصبتها
وجلاها حديثنا ، وكنا ننام ونفوق والصحراء هي هي ... حتى قطعنا يوماً
كاملاً ، وكان صباح اليوم التالي ، وللصباح في البادية جمال وروعة ،
لا يكون مثاماً في المدن ، وبددت الشمس ظلمة الليل ، فتبددت من نفسي
ظلمة الكتابة والحزن ، وانزاحت عني نوبة المرض ، وما العاطفة الرقيقة
الموتمة إلا مرض في الرجال ، فصحرت ونظرت في أمري فإذا أنا لم أغترب
ولم أفارق بلدي .

وهل بغداد إلا داري وبلدي وفيها أُملي وأخوتي ، إن لم تقرر هذه
الاخوة الانظمة ولم تسجل في الدساتير ، فلقد قررها الله من فوق سبع
سمواته وسجلها في القرآن : « إنا المؤمنون إخوة » . وليس ينقض
ما أبرم الله .

ولم فرقت بيننا مشاراة على الأرض ، وألوان على المصور ،
فلقد جمع بيننا الدين^(١) واللغة والعادات ، وألف بيننا تاريخ الماضي ، وأمل
المستقبل ، وألم الحاضر ، ووحد بيننا الدم الذي جاء من نبعة واحدة .
فأتى ننكر هذه الاخوة وشاهدها فينا ، ودمها في عروقنا ؟ وكيف
أجهل بغداد ولها في نفسي مائة صورة ، وفي ذاكرتي عنها ما لا أحصي من
الاخبار والتواريخ والاشعار .

وبغداد عاصمة الإسلام ، ومشرق شمس الحضارة ، وحاملة راية العصر
الذهبي الاسلامي ، وأم الدنيا ، ومنزل المنصور والرشيد والمأمون ...

فدى لك يا بغداد كل قبيلة من الارض (الا) خطتي ودياريا
فقد طفت في شرق البلاد وغربها وسيّرت وحلي بينها وركابيا

(١) وكفى به جامعاً بيننا .

فلم أر فيها مثل بغداد منزلاً ولم أر فيها مثل دجلة واديا
ولا مثل أهلها أرق شمائلًا وأعذب ألفاظاً وأحلى معانیا

وكنيت أرائنا نخاف هذه البادية ونحن على طريق مساوكة في سيارة
متينة ، ونزل من طولها ، ونحن فقطع منها غانين أو تسعين كيلاً في الساعة ،
ونشكو ومعنا اللحم والفاكهة والماء الثلج ، ونتعب ونحن مضطجعون
على المقاعد الوثيرة ، ثم إذا وصلنا الى الفندق غدا أربع عشرة ساعة ، لنستريح
ونسترد الروح ، فأفكر في أجدادنا أي ناس كانوا ؟

وكيف قطعوا هذه البادية وهم على ظهور الإبل ، يخوضون لجة الرمل
الملتهب ، يلتحفون أشعة الشمس المحرقة ، يتباعدون من الطعام بتمرة ،
ويكتفون من الماء بجرعة ، ثم إذا وصلوا قابلوا جيوشاً أوفر عدداً
وعُدداً فحاربوها وانتصروا عليها ، وفتحوا بلادها ، فأقول : هذا هو
فرق ما بيننا وبين أجدادنا .

هذا هو الفرق بين الشاب منهم تصيبه ضربة في المعركة ، فتقطع يده
من كتفه وتلبث متعلقة به ، فتؤذبه وتعيقه عن القتال ، فيعبد إلى
أصابع يده المقطوعة ، فيدوس عليها بقدمه ، ثم يتمطى حتى يبتئها ، ثم
يلقيها ويعود الى جهاده ، والشاب منا يزاحم المرأة على كل شيء هو لها ،
فيخطر في الشارع كالعروس في ليلة الزفاف ، وإذا ساكتة شوكة ، أو لفحة
الشمس ، أوى الى الفراش !

ولما كانت ضحى الغد بدا لنا نخيل العراق ، وأشرفنا منه على مثل
الليل ، فعرفت لماذا سمي العرب السواد سواداً ، وذهبت أتذكر الفتوح
(وعهدي بطالعتها قريب^(١)) فأحس بأني أسمو عن زمانني وأعيش في أيام الصدر

(١) كنت اشتغل قبل سفري بتأليف كتابي عن أبي بكر الصديق .

الاول وأقدر بعد نظر المستعمرين وصحة رأيهم في تعطيلهم التاريخ الإسلامي في مدارسنا ، وتنشئة أبنائنا على الجهل به والبعده عنه ، لما لهذا التاريخ من العمل السحري على بث روح الشرف والنبيل والقوة والعزة والفضيلة في نفوس شباب العرب ، ولأنه شمس إذا طلعت كسفت هذه الانوار الكبرائية ، التي أضاء بها الغربيون أرجاء تاريخهم ، فبدت توارى عنهم بعد ذلك سوداء مظلمة ... وبدأ وحده المشرق المنير :

وجعلت أتشوق إلى بغداد ، وأعرض في ذاكرتي صوراً منها ، وأنتظر أن أرى مدينة المنصور ، بأسوارها المستديرة وابوابها الفخمة ، وألح قبّتها الخضراء العالية المشمخرة ، الذاهبة في السماء ثمانين ذراعاً طالعة علينا من عرض الفلاة ، تضطرب صورتها في دجلة^(١) ، وملأ نفسي الشعور بعظمة بغداد ، المدينة التي كانت وحدها دنيا ، (كان فيها ستون ألف حمام ، فلو أن في كل حمام خمسة نفر : حمامي وقيم وزبّال ووقاد وسقاء ، وذلك أقل ما يكون ، لكان أصحاب الحمامات ثلاثمائة ألف رجل ، وكان حيال كل حمام خمسة مساجد ، فلو أن في كل مسجد خمسة أشخاص لكان ذلك ألف ألف وخمسمائة ألف إنسان . وأحصيت الزوارق التي في دجلة فكانت ثلاثين ألفاً^(٢) .

قال الخطيب : « لم يكن لبغداد في الدنيا نظير ، في جلالة قدرها ، وفخامة أمرها ، وكثرة علمائها وأعلامها ، وتميز خواصها وعوامها ، وعظم أقطارها ، وسعة أطرارها ، وكثرة دورها ومنازلها ، ودروبها وشعوبها ، ومحالّها وأسواقها ، وطيب هوائها ، وعذوبة مائها ، وبرد

(١) سقطت هذه القبة وتهدمت من قديم .

(٢) كذا قال المؤرخون . والمبالغة في ذلك كله ظاهرة .

ظلالها وأفيانها ، واعتدال صيفها وشتائها ، وصحة ربيعها وخريفها ،
وزيادة سكانها .

• • •

وبعد فها أنذا على (جسر بغداد) في نشوة من خمرة الذكرى . أذكر
ما لا سبيل لي الى تلخيصه ، وأحس ما لا طاقة لي على وصفه ، وقد قال
أبو الوليد ، قل لي شعبة : أرأيت جسر بغداد ؟
قلت : لا .

قال : فكأنك لم تر الدنيا .

أما أنا فرأيت جسر بغداد ، ورأيت الدنيا . لا أقول إنه أعظم
من جسر اسماعيل ، أو أجمل من جسر الزمالك ، ولكن لجسر بغداد سرأ
آخر ، يعرفه كل من نظر في كتب الأدب والتاريخ ، وقرأ عن جسر
بغداد . هذا الذي جازه القواد الفاتحون ، والفقهاء والمحدثون ،
والشعراء والماجنون .

هذا الذي وقف عليه الرشيد والمأمون ، وأبو حنيفة والشافعي
والفضل بن دينار ، ومطيع وأبو نواس ، وعبد الله بن طاهر ، ومزيد
ابن مزيد .

وشهد جلال الخلافة ، وعظمة العلم ، وروعة الزهد ، وضحك المجنون ،
وقوة الجيش .

وجرى عليه نهر التاريخ .

وتداعت على جوانبه القرون .

هذا الذي كان مرة الأرض !

• • •

أيا حبّذا جسر على متن دجلة بإنقاذ تأسيس وحسن ورونق
جمال وفخر للعراق ونزهة وسلوة من أضناه فرط التشوق
تراه إذا ما جمته متأملاً كسطر عيرو خطفي وسط مهرق^(١)
أو العاج فيه الآبنوس مرقش مثال فيول تحتها أرض زئبق

أما إنني إن أحببت مصر لأن منها أصلي ، وأحببت الشام لأن
فيها مولدي ، وأحببت الحجاز لأن إليها قبلي ، فإني أحب العراق لأن فيها
أجل ذكر الماضي ، وأحب كل بلد يقول أهله :
ولا إله إلا الله محمد رسول الله . لأنه بلدي ، وأهله أهلي .

• • •

(١) المهرق : الصحيفة .

سر من رأى

كتبت سنة ١٩٣٧

الآن رجعت من التاريخ . إلى أرى الدنيا صغيرة خالية ، لأنني
كنت في دنيا أكبر منها ، وأحفل بالنور والعطر ، كنت في
(سر من رأى) .

* * *

جلست أدون رحلتي إلى الحليّة (دمشق العراق) ، ووقوفي على انقاض
بابل (أخت الدهر) ، وزبارقي السدة الهندية (القناطر الخيرية الثانية) ،
وما أولاني الحليّون من ألوان المني وأنواع الكرم ، فلم أكد أمضي في المقالة
حتى عرضت لي رحلة جديدة إلى (سر من رأى) .

ومن ذا الذي لا تفتنه سر من رأى ولا تهيج بلابل أشواقه ؟
ومن ذا الذي نظر في كتب التاريخ ، أو شدا شيداً من الأدب ، ثم
لا يعرفها ولا يحس أن لها صلة بنفسه ؟

رددوا هذا الاسم الجميل عشر مرات ، بصوت خافت ، كأنه مناجاة
النفس ، بطيء ، كأنه هجس الضمير ، وأنتم تنظرون بعيونكم إلى بعيد ،
تحدقون في غير شيء ، فعل من يتذكر أمراً ، ثم انظروا كم يثير في
نفوسكم من ذكر وحوادث ، وفكر وعواطف ، أقل ما توصف به
أنها لا توصف .

وكيف تحتوي كلمات وهي عالم ، وكيف تنتظمها لغة الارض وهي
من لغة السماء ؟

ومنى كان الإنسان ناطقاً مينا ؟ إن هذه اللغة رموز ضئيلة لكائنات
عظيمة ، إن العواطف ماثات ومثات وما تم إلا كلمة واحدة تسمى بها
وكذلك الجمال والحب والطبيعة . لا ، ان الانسان لا يزال طفلاً لم يتعلم
النطق ، ولم يحسن البيان .

. . .

مرّ من رأى . وما مرّ من رأى ؟

هي التي نهضت لبغداد لما كانت بغداد عاصمة الارض ، ولما بلغت
غاية المجد ، وأبعد الأماني ، وبذت كل مدينة ، وكان فيها مليوناث من
السكان ، وكان فيها العلم والفن والسلطان .

نهضت لها تراحمها وتنافسها ، فلم تكن إلا ليالٍ حتى غلبتها وبهرتها .
وتربعت على دجلة من فوقها ، وسلبتها خليفتها وأهبتها ، وجلة أبنائها ، وكانت
أجل منها وأعظم .

سرّ من رأى ، المدينة الملوكية^(١) التي ولدت فجأة فإذا هي أجل
المدن ، وإذا في كل ناحية منها عرس ، وفي كل بقعة منها عرش ، وإذا هي
تتشع بالنور ، وتتضخخ بالعطر ، وتنام على الزهر ، وإذا هي تبلغ ما لم
تبلغه من بعد الزهراء المدهشة ولا فرساي .

ثم ماتت فجأة فإذا كل ذلك حلم سريع ، وبرق خاطف ، لم تعش

(١) النسبة صحيحة مستعملة من القديم وإن كان القياس (ملكية) . ومثلها في النسبة
إلى الجمع : رحل انصاري ورسالة اخوانية ومسألة اصولية .

إلا خمسين سنة (٨٣٨ - ٨٨٣ م) وما خمسون سنة في عمر المدثر إلا
خمسون دقيقة ؟

أفرايت الجميلة التي ولدت بأعجوبة فاذا هي الغادة الفتاة ، ثم إذا هي
تقضي بعد ساعة ؟

لم تكدر تزهري وتستقر حتى نودي فيها بالرحيل ، والرجوع الى بغداد ،
فهب الناس مذعورين ، يحملون ما خلفهم ، وغلائمه ، وتركوا المدينة
العظيمة للرياح ، والوحوش ، واللصوص .

قرأت ذلك من حديثها ثم لم أعد أعرف عنها شيئاً ، ولم أدر ما صنع
الدهر بها ؟

وأين من يسأل عن الآثار ويبحث عنها ؟

ومن يعرف اليوم ماذا جرى بالكوفة ومسجدها ، والبصرة ومربدها ،
أو يعلم صفة القادسية واليرموك ؟

من يسأل عنها ، وهذا مسجد بغداد العظيم ، مسجدها الجامع ، قد
ابتلعتة الدور ، وطمغت عليه فلم يبق منه إلا منارته تنادي لو
وجدت سميعاً .

وما كان ذنب هذا المسجد ، وما كان ذنب هذه الآثار ، إلا أننا
نحن وارثوها لا الفرنسيين ولا الإنكليز ، أولئك الذين لم يدعوا في
بلادهم شبراً من الأرض فيه جمال من جمال الطبيعة ، أو أثر من آثار
الماضي ، إلا كتب عنه مؤرخوهم ، ووصفه أدباؤهم ، وصوره
مصوروهم ، ونحن الذين أضعنا آثارنا الجليلة ، وهدمناها بأيدينا لنبني
بأنقاضها دورنا الحقيرة .

أسمعهم بالمدرسة النظامية التي درس فيها حجة الاسلام الغزالي ، وإمام

الحرمين الجربي ، والتي كانت من اكبر جامعات القرون الوسطى ؟
أندرون ماذا بقي منها ؟

منارة مهدمة طولها أربعة أمتار ، في زقاق عرضه ثلاثة أمتار ، عند
جامع مرجان في بغداد .

والمنارة مائلة قد انحنى تحت ائقال دار قد ركبها ، وربما هدمت المنارة
لتقام عليها الدار ، فمن يدري ؟

وأن من يدرس الآثار ويعنى بها ، وهذا قصر الخضر في دمشق لم
يبق منه إلا اسمه ، تحمله مصبغة في زقاق القباقيب ، يا لعجائب الزمان ،
صار مشرى التاج ، ومحط العرش ، زقاق القباقيب ! فمن سأل عنه ومن
وصفه ومن حفر في انقاضه ؟

أما لو أن هذه الآثار كانت لغيرنا ... إذن حُرثت هذه البقاع حرثاً ،
ثم أخرجت كنوزها ، ثم ملأت نفوس أهلها عزّة ، ثم كانت لهم اجنحة
يطيرون بها في معارج العلاء .

إن تحت هذه الأرض علماً ومجداً وجلالاً ، ولكن ليس فوقها من يحفل
العلم والمجد والجلال !

أوليس من أعجب العجب يا قومي ، ان آثارنا لم يبحث عنها ولم يكشفها
إلا هؤلاء الاوربيون ؟ إن في جوار دمشق قريتين هما (معاولا وجبّ عدين)
تتكلمان السريانية منذ خلقنا^(١) ، فما فكر احد في درس هذه اللغة ومعرفتها
حتى جاء هذا المستشرق الشاب من آخر الدنيا ، ليدرسها .

بل هذه هي سر من رأى مانقب فيها وكشفها للناس الا هـرستفيلد
الالمانى الذي حفر فيها سنة ١٩١١ كلها وبعض سنة ١٩١٣ بإشارة من استاذ

(١) ليس على وجه الارض اليوم من يتكلم بالسريانية غيرهما .

سار وبنفقة المصرف الالماني وبعض كبار الالمات . بدأ الحفر في قصر المتوكل ثم انتقل الى الجوسق والى القصر المعشوق^(١) واستخرج من هذه البقعة الصغيرة ، كرائم الآثار ، ونفائس الأعلاق التي انتقلت الى المانيا ، وبقيت لدينا نسخ معدودة من هذا الكتاب الجليل الذي اخرج هرسفلد في مجلدات كثيرة فيه صور هذه الآثار باهرة مذهشة حقاً . وهو يصف في المجلد الاول نقوش الجدران وزخارفها ، ويقول انها لم تكن تخالو دار من هذه النقوش الجصية البارزة الملونة احياً ، وفي الثالث الرسوم والصور . واكثر هذه الصور مما وجد في حمام الجوسق ، وقد سجلت هذه الصور مشكلة قصر المشق الذي كشف سنة ١٩٠٨

ويتحدث في جزء عن الاواني الزجاجية والحرفية ، وقد بين انه كان في سر من رأى معمل للزجاج ، ومعمل للأقمشة وجدت بعض قطع ملونة من مصنوعات .

ومن أهم ما تمتاز به المدينة شوارعها ، التي لاتسكاد تحوي مثلها (اليوم) مدينة في العالم ، فقد كانت كلها مستقيمة متقاطعة بانتظام عجيب ، والشارع الاعظم ، (وآثاره باقية) يمتد عدة أميال بعرض مائة ذراع ، ودورها التي كان اكثرها كبيراً فيه خمسون غرفة ، وفيه بحارٍ للماء وبرك ، وبحارٍ اخرى للماء القذر ، وحمامات وسرايب للصيف ، مبنية

(١) قصر عظيم باقية آثاره وهو مقابل قصر المتوكل على الضفة الثانية لم يعرف احد تاريخه والعامه تسميه قصر العاشق والمعشوق ، وبينه وبين قصر المتوكل آثار سد هائل في دجلة ، وقد بحثت وحققت فوجدت ان تلك الانقاض للقصر المعشوق الذي بناه المعتمد على الله ، قالوا : وكان في الجانب الغربي قبالة سامراء .

على نظام يكفل لها حسن التهوية ، وكان اكثر الدور على طراز واحد ،
فهي ذات ردهتين : ردهة حيال الباب تفضي الى ردهة أخرى مستطيلة عمودية
عليها ، والغرف من حولها .

وقد صحب هرسفلد رجل عسكري يدعى (لودلوف) متخصص برسم
المصورات ، صنع خريطة للمدينة مفصلة بنسبة $\frac{1}{25000}$ وصحبه رجلان
مختصان بالنقوش هما (بارتوس وبيجر) ، على ان ماكشفه هرسفلد لا يبعد
شيئاً ، والمتحف العراقي عامل على موالاة التنقيب في الآثار ، وجمعها في
متحف الآثار العربية ، وينتظر ظهور أشياء هائلة .

. . .

سرنا الى (سر من رأى) في قافلة مؤلفة من كبار طلاب (دار المعلمين
العالية في بغداد) ، فجزنا بالاعظمية وعبرنا النهر الى الكاظمية ثم
استقبلنا الفضاء .

ولم نقف في الطريق إلا على (جسر حرّبي) ، وهو جسر قائم وحده
في الفلاة ، ذو ثلاث قناطر ، عليه كتابة ظاهرة تدل على أنه بني في
أواخر العهد العباسي ، على (نهر دجيل) لبسقي مدينة حرّبي . فتلفتنا
فإذا النهر قد جفّ ، والمدينة قد محيت ، والعهد العباسي قد انقضى ، وإذا
كل بلاد الله تتقدم وتزداد عمارة ، وبلادنا تتأخر وتمعن في الحراب ، فوقفنا
معتبرين ، ومضينا مستعبرين .

ولم نسر من بعد إلا قليلاً حتى طلعت علينا (السكّويّة) وهي منارة
جامع المتوكل ، عالية تبدو من بعيد كالصرح الهائل ، وقد شبت مكانها

من سر من رأى (بروج إنقل) من باريز ، فهي علم البلد ورمزه ، ثم بلغنا دجلة فعبرواها ، ودخلنا (قرية) سامراء نستريح في مدرستها ساعة بعد مسيرة ثلاث ساعات في السيارة ، ثم ولجنا حرم التاريخ ، يصحبنا معلمو المدرسة الذين أولونا من أباديهم ، وأرونا من كرمهم ، وحسن أخلاقهم ، ما نذكره لهم بالشكر ، فلولاهم ما رأينا شيئاً ، ولا عرفنا من أين ندخل أو نخرج ، في هذا العالم الواسع !

إي والله هو عالم ، هو شيء عظيم .

مرنا أكثر من خمسة وعشرين كيلاً^(١) ، وما قطعنا إلا نصف البلد من المسجد الجامع الى الدور العليا ، وإن الى الدور السفلى لمثلها ، وإن هذا كله لنصف المدينة ، وعلى الضفة الأخرى مثله .

أنا لا أستطيع أن أتصور كيف كانت هذه البوابة الواسعة التي يضل فيها البصر ، مدينة عامرة ، وكيف كان الناس يقطعونها ، وإن بين أولها وآخرها اليوم لمسيرة اثنتي عشرة ساعة على الراكب .

كان أول ما رأينا المسجد الجامع ، وهو كبير جداً لو وضعت سامراء الحاضرة فيه لوسعها وفضل عنها ، لم يبق منه إلا السور وهو مبني من اللبن ، مثل سائر الأبنية العرفية ، تدعمه من ظاهره أبراج مستديرة ، ووراء السور المنارة ، وتعرف عند الناس بالملوية أي المستديرة ، وهي حلزونية الشكل سلتها من ظاهرها ، مؤلفة من سبع طبقات ، وتحتها قاعدة مربعة أقيمت حديثاً لتقويتها ، طول الضامع من اضلاعها (٤٠) متراً ، وارتفاع المنارة قريباً من (٨٥) متراً ، وقد بنيت على غرارها منارة

(١) بالضبط .

جامع ابن طولون في القاهرة^(١) ، ثم تركت هذه الصفة في المآذن ، وانخذ لها سلم من جوفها .



توكننا المسجد وسرنا في جهة واحدة ، كيلا نضل وسط هذه الأطلال ، وكان حولنا تلال من التراب ، كانت قبل الف ومئة سنة دوراً عامرة ، وقصوراً فخمة ، فجزنا بها حتى بلغنا أنقاضاً حولها سور كبير ، أخبرنا معلم المدرسة أنها أنقاض قصر أم عيسى ابنة الواصل .

وعلا بنا على تل عال وقال : انظروا
فقطرت فلم أر إلا برية واسعة ، لا شيء فيها .
فقال : أمعن النظر وحدق في الأرض . ففعلت فرأيت شيئاً أدهشني ،
وخفقت له قلبي .

رأيت تلالاً صغيرة منتظمة ، على شكل دوائر متقاطعة على نمط هندسي
بديع ، تمتد الى ما لا يدرك البصر آخره .

فقلت وأنا مشدوه : ويحك ما هذا ؟

قال : ميدان سباق تجري فيه الخيل الى اكثر من خمسة آلاف متر ،
فلا تغيب عن عيني الخليفة وهو يرقبها من مرقبه العالي .



(١) وهي باقية ، في موضع مدينة الفطاح التي بناها ابن طولون (حي السيدة زينب اليوم) .

ومضينا . . . نمرّ على الأطلال ، حتى بلغنا آثار سور كانه
سور مدينة .

فقال دليلنا : هذا بلاط الخليفة .

فتوجّلنا وسرنا في طريق مبلط باقية آثاره ، ونحن نتخيل كم مرّ في
هذه الطرق من خلفاء وأمراء ، وكل شهد من جلال وجمال ، حتى بلغنا
مصيف المتوكل ، وهو أول ما استقبلنا من القصور ، ونسيت أن أقول
أن البلاط بلدة واسعة ، فيها عشرات القصور تبدو أنقاضها ناطقة بعظمتها ،
وفيه المسجد الكبير ، وفيه البركة المتوكلية المشهورة (بركة البحري) .
فولّجنا المصيف ، وهو قصر كبير تحت الأرض ، فيه غرف كثيرة
يفضي بعضها الى بعض ، وفي ساحته بركة .

وقد كدنا نهلك من حرارة الشمس ونحن فوق الأرض ، فلما هبطنا الى
جوف القصر كدنا نشكو البرد .

وكان زميلنا استاذ التاريخ يقص على الطلاب قصة القصر وبنائه وفنه
وقيمته التاريخية ، ولكن واحداً منا لم يكن يصغي أو يفهم شيئاً مما يقول ،
فكفّ وعلم أن الكلام الآن للقلب وعواطفه الحيّة ، لا للعقل ومقاييسه
الجافة ، وفلسفته الباردة .

كنا نتخيل هذا القصر ، وقد كان يعجّ بالحياة ، ويفيض بالحب .
كنا نسمع الاصوات ، ونبهر الألوان ، ونشم عبق العطر ، ونحس
كأننا نرى الخليفة ، ونشهد مجالس الادب والغناء ، وخلوات الحب .
كم عاش في هذا المسكان من عواطف !
كم خفقت فيه من قلوب !

كم امتلاً بالحياة !

أفيودي ذلك كله بمثل هذه السرعة وهذه السهولة ، وبشبهه العدم ولا يبقى له وجود قط ؟

أي امرئ عرف الحب ، وكابده وأدرك معناه ، ثم يؤمن بأن العدم يقوى عليه ؟

لا . إن ذلك كله موجود !

موجود في زاوية من زوايا هذا الكون الفسيح ، إنه خالد لا يفنى أبداً .

إن في هذا القصر ذكريات جنة ، تحتويها هذه الجدران الحرساء وهذا اللبن البارد ، إن فيه صدى تلك الهمسات التي كانت تتناجى بها الشفاه ، إن فيه خفقات تلك القلوب ، إن فيه رنات تلك القبل .

إن سؤال الديار ، واستخبار الاطلال ، أقدم فنون الشعر العربي ، فهل ترى الشعراء كلهم مجانين ؟ أتراهم كانوا عابثين ؟

لا ، إن في هذه الاطلال حياة ... إن كل شيء في الوجود حي يذكرك ويأمل ويشعر ويحلم ، ولكنه لا ينطق ولا يفكر .

آه ... لو أن هذه الجدران كانت تنطق ، وتحدث وتصف ما تشعر به ؟ !

وخرجنا من القصر ، ونحن نحس كأننا قد خرجنا من أنفسنا وانتقلنا إلى عالم آخر ، عالم يمتزج فيه الأحلام بالحقيقة ، عالم شعري ساحر ... فرددنا على جب واسع الماء خبرنا دليلنا إن بعض الجاهلين من الأدلاء والتراجمة يدمعون بأنه سجن ويخيلون عنه الأكاذيب . وهؤلاء الأدلاء والتراجمة

بلاء أزرق ، وقد سمعت واحداً منهم يشرح لبعض الافرنج تاريخ الجامع الاموي في دمشق ، فقال لهم ما نصه : « هذه هي المنارة التي بناها الوليد بن هارون الرشيد لسيدنا عيسى^(١) ، ولذلك سميت منارة عيسى » وهم يكتبون في دفاترهم ما يقول ، فينشرونه على أنه كتاب علمي عن الشرق وأهله ، وليس العهد ببعيد بتلك الكتابة الفرنسية التي كتبت كتاباً عن دمشق قالت فيه : « يخرج أهل دمشق كل مساء لزيارة قبر النبي في مكة القريبة ويرجعون ليناموا في دورهم » ! وما قبر النبي في مكة ، ولا مكة في دمشق ، ولا يخرج أهل دمشق ولا يدخلون ، ولكن الحماقة ألوان ، والجنون فنون !

أقول : اننا سرنا الى مسجد القصر ، وقد حفر فيه هرسفلد واستخرج منه آثاراً رخامية ، ومحراباً جميلاً حملها الى المانيا ، ثم انتمينا الى البركة ، ولست أكنم القراء اني كنت أظن أن البحترى يبالي في وصفها على طريقة الشعراء الخياليين ، وأقرر ذلك في دروسي الادبية ، وأقول :

ما عسى أن تبلغ هذه البركة حتى تظل دجلة كالغبرى منها تنافسها وتباهيها ، وحتى تبدو في الليل كأن سماء ركبت فيها ، وحتى أن السبك المحصور لا يبلغ غايتها لبعده ما بين قاصيها ودانيها ؟

فلما رأيت أنقاضها رأيت شيئاً عظيماً ، رأيت بحراً ، رأيت ميدان سباق .

دائرة فطرها نحو مائتي متر ، فأكبرتها وهي جافة ، فكيف لو

(١) لذلك الفت كتابي (الجامع الاموي) الذي طبعته وزارة الاوقاف وستوزعه مجاناً .

رايتها وهي مبتلة بالماء ، ومن حولها الغرف المفروشة المزخرفة وقد عقد
فيها مجلس الخليفة ؟

اذن لرأيت أكثر مما قال البحتري ، فرحم الله الشاعر وألهم شعراءنا
تخليد ما يرون من جمال بلادهم ، وعظمة مصانعهم ، على نجر ما خلد البحتري
البركة والجمعري وطاق كسرى !

ثم سرنا الى قصر الخليفة الرسمي ، ووقفنا في ايوانه الكبير ، وهو مبني
على شكل ايوان كسرى ، ولكنه اجمل وأصغر ، وقفنا صامتين خاشعين
تتقاذفنا عواطف وذكريات لا يندى مداها ، تتخيل هذا الايوان ، وكـ
عقد فيه من مجالس ، وكـ وقف فيه من ملوك ، وكـ كتب فيه من تاريخ
نبصر المعتم وقد أخذ كأساً ليشربها فأبلغوه أن امرأة مسلمة أسيرة في بلاد
الروم صاحت : وامعتصاه !

امرأة اسيرة ، وامير المؤمنين يشرب كأسه هائلاً ؟

امرأة تنادي : وامعتصاه ، والمعتم لا يجيب ؟

إن هذا لن يكون !

وأرى المعتم يخرج في الجيش اللجب ، الذي تضطرب له سر من رأى ،
وتقيد لثقله الارض ، وتضعق لهوله المركة ، وتنجف الرواسي ، حتى يحط
على حمورية ، فيدكها دكا ويعود مثلاً بالمجد والظفر والغنائم .

وأسمع أبا قام ينشد آيته الخالدة التي لم يقل أعظم منها المتنبي (١) :

السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب

(١) ابو تمام لا المتنبي هو الاستاذ الاكبر في الشعر العربي .

فتح الفتوح تعالى أن يحيط به نظم من الشعر أو نثر من الخطب
يا يوم وقعة عمورية انصرفت عنك المنى حفلا معسولة الحلب
أبقيت جدد بني الاسلام في صعد والمشركين ودار الشرك في صعب
ثم انظر حولي فأرى كل شيء قد تبدل :

تغير حسن (الجعفري) وأنسه وقوض بادي الجعفري وحاضره
تحمل عنه ساكنوه فجاءة فعادت سواء دوره ومقابره
إذا نحن زرناه اجد لنا الامى وقد كاث قبل اليوم يهيج زائره
(غدا موحشاً قفراً) كأن لم يقم به أنيس ولم نحسن العين مناظره
كأن لم تبت فيه الخلافة طلاقة بشاشتها والملك يشرق زاهره
ولم تجمع الدنيا اليه بهاءها وبهجتها والعيش غص مكامره
فأين الحجاب الصعب حيث تمنعت بهيبتها ابوابه ومقاصره
وأين عميد الناس في كل نوبة تنوب وناهي الدهر فيهم وآمره^(١)
لقد هجرته الحياة ونأى عنه النعيم ، وجفاه كل صديق ، حتى دجلة .
دجلة اعرضت عن القصر ، ونأت عنه وقد كانت تسيل على أعتابه ،
وجفته وكانت مع الدهر الدوار ، والزمان الغدار .
حتى دجلة التي أفاضوا عليها المجد ، ووضعوا فيها الحياة ، وأعطوها
أكثر مما أخذوا منها ، حتى دجلة التي جرت ملايين السنين ، فلم تجد أكرم
ولا أعز ولا أعظم ، من اصحاب هذا القصر وبناته ...
حتى دجلة نسيت وخانت^(٢) ! !

• • •

(١) من قصيدة البحري وهو صاحب اجل اسلوب في الشعر العربي .
(٢) غير النهر مجراه وابتعد عن القصر مسافة كبيرة وقد كان ير امامه .

ثم ودعنا البلاط وسرنا ، وقد اودعناه قلوبنا ، وصببنا فيه نفوسنا ودموعنا .
سرنا في الشارع الاعظم نصف ساعة في السيارة ، والشارع بيّن لاحب ،
عرضه مائة ذراع ، والشوارع تتفرع عنه في نظام عجيب ، وهندسة محكمة
والبيوت قائمة على الجانبين ، وقد استعمل أثرا الى تلال من التراب
كأنها القبور ...

فهررنا على معسكر أشناس ، وهو شبه بميدان فسيح جداً حوله سور ،
حقق انهيئنا الى المسجد المعروف اليوم بجامع أبي دلف ، وهو اكبر من مسجد
المتوكل ، وفيه رواق قائم على خمس قناطر ومنارة كاللوية ولكنها اصغر
منها ، فوقفنا عاياه . وكانت الشمس قد مالت الى المغيب ، فانتهت الرحلة
هنا ، وعدنا ونحن صامتون خاشعون . . وقد علمنا لماذا يريدون منا ان
نتجرد من ماضيها ، ذلك لاننا لا نستطيع ان نبني المستقبل الفخيم ، إلا
على أنقاض الماضي الفخيم .



على ايوان كسرى

كتبت سنة ١٩٣٧

خرجنا من بغداد ، فسلطنا على « حيّ البتاوين » ظاهر « الباب الشرقي » ، وجزنا على قصوره الشم ، التي تنكس فيها الارستقراطية الناعمة على الأرائك ، سكرى بخمرة الذهب ، وسرنا الى « المنيدى » في الطريق التي تنام على بسط الحقول السندسية ، يحرسها صفان من النخيل ، حتى انتهينا الى « المعسكر البريطاني »^(١) صرح أكاسرة اليوم ، فتركناه وأمننا صرح أكاسرة الامس ، لنقف عليه ذاكرين معتبين .

عبرنا نهر « ديالى » وخلفنا القرية جائئة على كتف النهر ، قد دلت رجلها في مائه ، واستقبلنا الفلاة الواصلة ، فما عدنا نرى إلا الفضاء ، حتى إذا سرنا فيما ساعتين ، طلعت علينا قرية « سلمان » ، تلوح على حاشية الافق ، تضرب وتغيب ، ثم تبينها ورأينا قبة مسجدتها واضحة ، ورأينا بجانبها بناء ضخم كأنه جبل ، فقلت : ما هذا ؟

قال صحبي : هذه قبة سلمان الفارسي ، وهذا ايوان كسرى .

(١) كان كذلك يوم كتب هذا الفصل ، صار الآن (معسكر الرشيد) ترفرف عليه الراية العراقية العربية ، فالحمد لله .

فقلت : يا للعجب ! أطاف سلمان ما طاف حتى استقر قبره بجانب
الايوان ، فعدوا متلاصقين ، وبدوا متعانقين ؟

وحسبنا « الدرجات » الى القرية ، فبلغناها بعد ساعة .

كانت قرية صغيرة ، نشأت على قبر سلمان رضي الله عنه ، ليس فيما
(إلا مسجده) شيء يذكر ، أما الايوان فهو في ظاهر البلد ، متربع على
ظهر الفلاة وحيد معزول ، مطرق حزين !

. . .

وقفنا عليه فإذا هو (طاق) عال متهدم ، وجدار شامخ
متصدع ، وإذا هو ضخم ضخم ، ولكنه عار موحش ، ليس فيه
صورة ولا نقش .

لا صورة انطاكية التي تروى بين روم وفرنس ، ولا أنوشروان يزجي
الصفوف تحت الدرفس ، ولا عراك الرجال بين يديه في خفوت
منهم وإغماض جرس ، من مشيخ يهوي بعامل ربيع ، ومليح من
السنان بترس^(١)...

لقد محا الدهر الصورة ، كما محا أهلها ، ودار الزمان دورة أخرى ،
فأصبح حاضر البحتري ماضياً ، وعيانه أثراً .. ذلك لأن الماضي نقطة
واحدة ، تتلاقى فيها الأبعاد ، وتضيع المسافات ، وتلفى الدهور .

نقرأ قصيدة البحتري ، ونرى الايوان ، فنحس أنهما قد التقيا في عالم
الماضي ، وضاع ما كانت بينهما من عصور ، كما التقت آثار « سر من

(١) من قصيدة البحتري .

رأى ، بأطلال بابل ، فكان حكمهما في الخيال واحداً ، وأثرهما في النفس واحداً ، وكما التقت في أبصارنا ونحن قادمون على القرية قبة سلمان بالايوان .

ومن لمعري يدرك الزمن الذي كان بين آدم ونوح ، وإبراهيم وموسى ، وبلقيس والزباء ، وهوميروس وأفلاطون ، وحروب طروادة وقتوح الاسكندر ؟ إن الحوادث كلها أمعنت في الماضي ، ضاعت من بينها الأزمنة واححت الابعاد .

* * *

وليس يبعج النفس ويثيرها مثل أطلال الماضي ، والوقوف بآثار الغابرين ، ففيها روعة البقاء ، وهول الفناء ، وعبرة الدهر .

وهي نوافذ تطل منها النفس على عالم المجهول الذي نحن اليه أبداً ولا نبي تقرر بابه ، فتتحرر فيها ساعة من قيود المادة ، وتطير في مسارب الأحلام .

ولقد وقفت على الاهرام ، ومررت على الحديدية ، وجلست في العتيق ، وعرجت على حطّين ، وزرت بعلبك ، فكان شعوري في ذلك كله كشعوري اليوم وأنا في المدائن ، أمام إيوان كسرى ، أستعظم الأثر ، وأعجب بجلاله ، وأكبر القدرة التي أنشأته ، ثم أعود بفكري الى الماضي ، فأحس بأن صفحته تفتح أمامي ، فأرى "حقيقة" مشاهدة ، كل ما قد قرأت في الكتب ، وأتخيل أنني مع الغابرين أسمع وأرى ، فأداني قد عشت دهوراً ، ثم أقابل وأعتبر ، ثم أذهل عن نفسي ، وأجول بفكري وخيالي في آفاق كثيرة لم أرها من قبل .

في الآثار الباقية ، والامم الماضية ، يلتقي أعظم شئئين وأجلهما :
الزمان والمكان ، فتلمس القرون تنحدر على صخر الهرم ، أو أعمدة
بعلبك ، أو آجر الايوان .

هذا الآجر الذي حمل أعباء القرون السبعة عشر ، يالروعته وجلاله !
إني لأحتقر نفسي وأنا قائم بقامتي القصيرة الهزيلة ، حيال هذا السكائن
الجبار الهائل ، ثم أعود فأرى كل شيء دوني حقيراً ، أنا الحيّ ، وأنا الباني ،
وما هذه كلها إلا أثر من آثارني ، ليس لها لولا فكري وجود ، ولا لوجودها
معنى ، ثم أراني أحقر منها وأصغر ، بجنب الله الباقي ، وأرى هذا الفكر
وما أنتج ، مخلوقاً من أصغر مخلوقاته ، لا إله إلا هو .

وأطفت بالدويان ، ووقفت على بابه ، ثم دخلت اليه من الصحراء
فإذا ... فإذا أنا قد خرجت الى الصحراء .

الصحراء الصامتة صمت الموت ، الموحشة وحشة المقبرة ، الممتدة
امتداد الزمان .

وقفت أستنشق عبير المجد ، وأتسمع نشيد العظمة ، فما سمعت إلا صفير
الرياح ، ولا نشقت إلا رطوبة الغناء .

لمست الايوان فما أحسست إلا برودة الحجر ، تسلقت الجدار حتى كللت
رجلاي ، ولم أبلغ نصفه ، فجلست على لبنة بارزة لاستريح ، وتلفت ،
فاذا الافق الواسع الرحيب ، واذا الناس كالنمل ، واذا القرية كأنها كومة
من الحجارة ، مكومة في أعماق الوادي ، واذا دجلة تجري بعيداً تلبس
حُلّة من نور الشمس فتبدو لامعة تزبغ منها الابصار ، وإذا أنا وحدي ،
معلق بين السماء والارض ، فغَشَّتْ نفسي ، وأخذني الدوار ، وهممت
بالسقوط ، فأغمضت عيني كيلا أرى شيئاً .

أغمضت عيني ، وفتحت قلبي ، فرأت البصيرة ما لا يراه البصر :
رأيت أني قد ذهبت أنخطى أعناق القرون ، وأطوي سجل الزمان ،
وأدير بفكري دولاب الفلك ، فيكر واجعاً .

ارتخفت هذه الجدران العارية وأخذت زينتها ، وعادت هذه
الابواب ، وأسدت عليها ستر الوشي والديباج ، وتخلت هذه السقوف
بالصور والنقوش ، وتدلت منها سلاسل الذهب تحمل الثريات
المرصعة بالؤلؤ .

عاش الايوان ، وقام في صدره سرير أنوشردان ، ورجع المجد
وعاد السلطان .

وحلّت الحياة في هذه الصحراء ، فنبتت المدائن والقصور من الارض
نبعاً ، ونبتت منها نباتاً ، فنمت في لحظة وأورقت وعلت واستطالت ،
ولون الحبال هذه البرية السكالحة بألوان الزهر ، فعادت حدائق وبساتين
كانت لهذه المدائن كالإطار ، فرأيتها أعظم المدن ، وقصورها أفخم القصور ،
والايوان أجمل صروحها وأعلى دُرّها .

ورأيت هذه الأبواب التي كانت منذ ساعة تفضي من الصحراء الى الصحراء ،
مفتحة للرياح والذئاب ، قد قام عليها الحجاب ، ووقف دونها الملوك ،
وحلّت على أعتابها المجد .

والجدران التي كانت عارية مصدعة ، قد شيمت وبذت وعزّت ، حتى
غدت والطير تحشى أن تطير فوقها ، أو تحوّم في سماها .

ورأيت دجلة التي كانت منذ ساعة تجري في البادية بعيدة ، بعيدة عن
الايوان ، معرضة عنه ، لا تلتفت اليه ولا تأبه له ، قد غدت ساقية ،

نشي خاضعة وسط المدائن ، وثنجني لتعقد على كتفها القناطر والجسور ،
وتفتح صدرها لتضم ظلال هذه القصور ، وهي تستنقع فيها في أمسيات
الصيف الحارة !

ورنوت بعيني الى هناك ، الى الحيرة ، فاذا الخور تنق السامق يعنو
للایوان ، كما يعنو صاحبه لربه ، ورميت ببصري الى بعيد ، الى
الجزيرة ، فاذا فيها أشباح نجية وتروح خلال الضباب ، تموج كأنها في بحر
واسع ، وكأن خيامها سفائن يحملها الموج ، ويمشي بها مدّ وجزر ، ولكن
هذه الأمواج تنكسر على صخرة الايوان ، ثم ترتدّ ضعيفة وانية ، والایوان
مشيختر عاتٍ .

لا ملك أعظم من ملكه ، ولا سلطان أعظم من سلطانه ، ولا إنسان
أعز من ربه .

وأمتد ببصري الى المشرق والمغرب ، فلا أرى كالأیوان ثروة وجاهاً
وعظمة ومجداً .

ولكن ... مه !

إن في البادية شيئاً جديداً .

لأنها تضطرب وتمتزج .

إن فيا فيها تنخفض بالحياة .

ها هو ذا النور يشق الضباب الكثيف ، حتى يلمع كالبرق الخاطف ،
بين قصور المدائن ، وتحت أقبية الايوان .

لقد ضرب محمد صلى الله عليه وسلم صخرة الحندق ، فأضاءت المعجزة الايوان ،
فوعده أتباعه وقال لهم ؛ هذا الطريق .

يا للعجب العجيب !

إن هذه القرية الملتفة في ألحفة الرمل ، النائمة على صخور الحرة ،
التوسدة سفح أحد ، وجوانب سيلع ، تريد أن تأكل المدائن !
بلغ كسرى الخبز ، فضحك حتى استلقى . ثم جاء كسرى
الكتاب ، فعبس وبسر ، وأعرض واستكبر ، ومزق كسرى كتاب
سيد العالم .

لقد نطق سيد العالم بالحكم النافذ : ليمزقن الله ملك كسرى .

. . .

وفتحت عيني ، فاذا الحلم قد تصرّم .
غاضت المدائن في الأرض ، ونزعت الجدران ثيابها ، وابتلعت
الصحراء زهرها ووردها ، وعادت قاحلة ليس فيها إلا هذه الانقاض ، جائئة
على ظهرها ، قد حطمها الكبّر ، وثقلت عليها السنون ، فانحنى حتى
تساق صبية القرية سطوحها يلعبون عليه .

. . .

الصبية يلعبون على سطح الابوان !
أين كسرى يرى ما صار اليه إيوانه ؟
أبناء العرب يتلمون بمجلسك يا شاهنشاه ! لقد قوّض المجلس ، وثلّ
العرش ، وهوى التاج ، فما أنجدك الجند ، ولا أغنى عنك الغنى ، ولا حمتك
الحمية ، ولا آواك الابوان !
لقد مزق البدو ملكك يا كسرى ، وما هذا عجيباً ، فالتمزيق
أسهل من الترقيع ، والمهدم أهون من البناء ، ولقد هدم البرابرة من قبل

عرش الرومان ، غير أن هؤلاء البدو (يا ملك) أسسوا حضارة خيراً
من حضارتك ، وبناءً أجل من بنائك ، وحكموا أعدل من حكمك .
لقد أثرت حضارتهم حضارة قرن العشرين ، وحضارتك لم تثمر شيئاً .

لقد بنت ديمقراطية صر ، الذي كان ينام على التراب ، ويلتجف
بالبرنس ، ويؤدب بالدرة ، ويعين الفقير ، ويخدم العجوز ، وينصف من
نفسه ، لقد بنت ديمقراطيته دولة .

أما جبروتك ، وعظمتك الجوفاء ، واستعبادك الناس ، فلقد
هدمت دولة .

هذه بغداد الاسلام ، فيها أربعمئة وخمسون ألفاً^(١) ، وهذا ايوانك
تصفر فيه الرياح الباردة ، صفيح الغناء المرعب ، وتنشد فيه الطبيعة
نشيد الموت .

منذ الذي كان يفكر أيام عز الايوان ، أن صبية العربي ستلعب
على أنقاضه ؟

منذ الذي يفكر اليوم بأن أطفال طرابلس^(٢) ستقفز على اطلال روما؟
لا تتعجبوا من شيء إن اللبالي يلدن كل عجيبة !
وليعتبر الطغاة ، فلقد كان كسرى (يوم كان كسرى) أضعف سلطاناً ،
وأعظم بنياناً ، وأكثر أعواناً فأباد الزمان السلطان ، ودك البنيان ،
وأهلك الأعوان .

. . .

(١) كان ذلك سنة ١٩٣٧

(٢) لقد تحقق نصف الحلم ، فاستقلت طرابلس ، وطرد منها الطليان .

اعتبروا فهذا صرح كسرى ، خال مؤحش ، وهذا قبر سلمان ،
هامر مأنوس .

قد مات القصر وعاش القبر ، قصر كسرى شاهنشاه الذي كانت تقوم
على بابه الملوك ...

... . ضاحين كسرى من وقوف خلف الزحام وخس
قد مات وغدا قبراً في القلاة ، وهذا القبر ، قبر فارسيّ من عامة
الناس ، يصبح مشوى الحياة ، تلتف به البيوت ويؤمه الزائرون ، يقفون
حياه خاشعين ، ثم يعودون ولا يلتفتون الى الايوان وبينهما ثلاثمائة ذراع !
أين كان سلمان ، من كسرى أنوشروان ؟
أين كان من وزرائه وأتباعه ؟
وأين كان من خدامه وحشمه ؟

صه ! لقد خلد سلمان بالاسلام فكان أعظم من كسرى .

أما بعد فقد تكون الاهرام أضخم وأضخم ، وأعمدة بعلبك أجل وأجل ،
ولكن للايوان معنى آخر .

هنا كان يستقر جلال الماضي كله ، هنا كانت عظمة الملك ، وجبروت
السلطان ، هنا كان الذي يستعبد الناس فيؤكّله الناس ، لم يبق من ذلك
كله شيء !

. . .

وكانت الشمس قد جنحت الى المغيّب ، فنزلت ، ووقفت أودع
الايوان ، فاقترب مني سائل أعمى ، وجعل ينفخ في ناي معه ، نغمة حزينة
مؤثرة فكان لها في تلك الساعة ، في صمت الصحراء ، ووحشة الايوان ،
وغروب الشمس ، أثر في نفسي لا يوصف ، فقلت : آه ليتني كنت
شاعراً !

تورة دجلة

كتبت سنة ١٩٣٧

« ازدادت دجلة يومي الاربعاء والخميس ٣ ، ٤ صدر سنة ١٣٥٥ زيادة هائلة لم تكن منتظرة ، وغدت بغداد عرضة للفرق بين كل لحظة واخرى ، وسبق الناس كاهم للعمل على اقامة السدود ، ولم تنفض في بغداد ليلة الخميس عين ... وكان شيء عظيم ... »

كانت تجري في الوادي حاملة مكوى ، غارقة في بحر من الحب والشعر ، هادئة لا ترى فيها إلا آثار هذه القبل المعطرة المعسولة التي تطبعها الشمس على وجنتيها الصافيتين كل صباح ومساء ، تخطفها منها في غفلة من الكون ، فلا يبصرها إلا الشفق الذي يطل من نافذة الافق يرميها بنظرة الكاشع الحاسد ، فيحمر وجه دجلة الفتاة من الحجل ، وتغمض عينيها من الحياء ، ثم تسرع في جريها ..

وكانت تنلقى بين ذواعيها العاشقين المدلهين^(١) ، كلما دجا الليل وأطفئ مصباح الكون ، وهم في الزوارق ذوات الاجنحة البيض التي تشبه قلوبهم في بياضها وخفافتها ، فتعذب عليهم ، وتحفظ أسرارهم ، وتمنعهم الخلوة الخلوة الآمنة ، وتغمر نفوسهم بالجمال والشعر ، حتى يغبوا عن الوجود في حلم فائق بعيد .

وكافت تغضي عن هذا النخيل العاشق ، وقد تعانت كل زوجين منه ،

(١) اعني الأزواج الذين اجتمعوا بعقد الشرع ، لا الفساق الذين اجتمعوا بعقد ابليس ..

وتلامسا بالشفاء ، واستسما الى الغيبة المنيفة ، وعن هذه القصور التي تقيأت
ظلاله ، مكسرى بخررة الجمال ، قد ضمت أحماؤها على حياة لذة وادعة ،
ملؤها الحب .

وكانت هجلة جمال العراق ونعمته وحياته ..

وكننت أذهب كل مساء ، الى (جسر مود) ، أنحدر اليه من الرصافة ،
أمشي في طريق ضيق ، كأني أهبط وادياً من أودية بلاد ذي الحبيبة ، ثم
أصعد حتى أبلغ ضفة الكرخ ، فأسلك شوارع الصالحية ، حتى أصل الى
المطار .. حيث أبقى ساعة شاخصاً الى الأفق البعيد ، أتبصر فيه طيف بلدي
وأنحس نسيجه فأشم فيه شذا الغوطة ، وأنشق ربا نشرها العطر ، وعرف
آسها ونسرينها ، وفلها وباسمينها ، ونرجسها ورباحينها .. حتى اذا قضيت
من ذلك وطراً ، عدت وقد خلا الجسر ، فحييت دجلة ، وصبيت
في أذنيها آلامي وأحزاني ، واستمنحتها الراحة والاطمئنان ، ثم مضيت
الى وكري المتعزل ، في (الاعظمية) بنفس هادئة كدجلة ، مطمئنة
كاطمئنانها .

. . .

وذهبت في مساء الامس ، كما كنت أذهب ، فاذا الارض قد بدلت
غير الارض ، واذا الجسر الذي كان وادياً ننحدر اليه ، قد أمسى جبلاً
تسلقه^(١) وصار أعلى من الشوارع وقد كان تحتها ، واذا الناس يقبلون
عليه ، فأقبلت معهم وعلى وجهي من الدهشة والحيرة مثل ما على وجوههم

(١) كان الجسر قائماً على عوامات يصعد مع الماء ويهبط معه ولم تكن قد انشئت هذه
الجسور المستقرة .

من الروعة والفزع ، ونظرت فاذا النمر الذي كان يجري في الاعماق هادئاً
متطامناً حالماً ويبدو وكأنه صفحة المراة ، لا تنداح عليه دائرة ، ولا تموج
فيه موجة ، قد علا وارتفع وعاد ثوراً هائجاً ، له هدير ووردرة ، قد علاه
موج كالوادي ...

واذا هو قد نسي سنه ووقاره ، وأضاع حلمه وعلمه ، ورجع شاباً مجنوناً
أهوج ، يقفز ويصرخ ، ويقرع الارض بقدميه ، ويضرب بقبضته
القويتين الخفيفتين ، أبنية الشاطئ الآمن . ويعبث بهذه الكرات الحديدية
الضخمة ، التي أقيمت لتثبيت الجسر العائم والتي ترجع بالقناطر ، وتزن
الصخور الجلاميد ، ويقذف بها هنا وهناك كما يقذف الصبي كرتة ..

واذا هو مرعب حقاً ، يدخل الروع على اجلد الرجال .
وكانت الوجوه كالحة ، قد ارتسمت عليها سمات الذعر الشديد ،
والماء يرتفع .

لم يبق بينه وبين الشاطئ إلا شبر واحد .
لقد بلغ مدى المياه خمسة وثلاثين ذراعاً وعشرين معشاراً ..
إنه لا يزال يرتفع .
لقد صاقب الشاطئ .
إن بغداد في خطر .

. . .

وطارت كلمة الخطر على اللسان ، ففزع الشعب ، واهتمت
الحكومة ، ووضع قانون المساعدة الالزامية ، فابتدر الناس الشاطئ ،

واستبقوا الى العبل ، يقيمون السدود ، ويضعون للمجنون القيود ، ولكن
المجنون لا يبالي بقبيل الذباب .
لانه يقتل أمة منها بضربة واحدة .

• • •

ان الثبر^(١) يقفز في حبسه ويشب ، لقد جن .
لانه يريد أن يخرج فينبعث في الارض .
يريد أن يمشي الى هذه الجنات الظليلة ، التي طالما أمدتها بالحياة ، وحمل
اليها النعمة ، ليحمل اليها الموت !

وبدأ الصراع المهول بين الطبيعة والإنسان ، وأمسى المساء على بغداد ،
وهي قائمة على قدم وساق ، ليس فيها من يبيع أو يشتري أو
يلهو أو يلعب ، أو يطعم أو يشرب ، ليس لها إلا غاية واحدة ، هي
النجاة من الفرق .

وكننت قد بلغت منزلي فصعدت السطح فأنحسرت امامي صفحة
النهر ، وهو يلتوي من حول الاعظمية كالافعى ، بطيف بها كالتضاء
النازل ، وقد استرخى عند المنحنى وتقدم على الحقول والدور التي هجرها
أهلوها ، فصار عرضه أكثر من ألي ذراع .. وصار بجراً خضماً ، ولكنه
يركض دفثاً يحمل في طياته الموت والفرق والحراب .

وكانت حمرة الشفق تخاطب الماء ، فيلتهب فيبدو كأنه اتون مستعر ،
أو كأنه جهنم الحمراء .

(١) اسم دجلة بالفرنسية Tigre وبالانكليزية (تايجرس) ومعناها النمر .

وبسط الليل ثوبه الاسود على الدنيا ، فأخفى نجمته ثمانية وأربعين ألف
شاب ، يشتغلون لينقذوا بغداد من الغرق المحقق ، ومن وراءهم اربعمئة
الف قلب ، تحوطهم بالرعاية والحب .

واستمر الصراع والهول .

وكان الناس من الفزع والذعر كأنهم في يوم القيامة ، غير أن المرء في
يوم القيامة يجد ما يشغله عن أمه وبنيه ، وصاحبه وأخيه ، وهنا أم حائرة
مولعة قد ضاع منها ولدها في وسط الزحمة فهي تمعدو وتصيح من غير وعيه
لا تدري أهو من الاحياء ، أم افترسه هذا النمر الجبار .

وهنا بنت تفتش عن أمها ، وولد ينادي أخاه ، وأمرة قد هيات
متاعها ووقفت على باب الدار تنتظر الساعة الرهيبة التي يطفى فيها الماء فيدلك
دارها وما فيها ويدعها فقيرة مسكينة ، مسكنها الشارع .

وشباب عصفت النخوة برؤوسهم فهم يقدمون ، يتسابقون
الى الخطر .

وتلاميذ قد دفعتهم الحمية فأقبلوا يتبادرون الموت ، والجنود يعملون في
كل مكان بهجم الأسود .

كان الصراع يلا الجوى : هتاف الشباب ، وانغام الجند ، وصياح
النساء ، ونداء الاولاد . والنهر فوق ذلك كله يدر هديره المستمر المرعب ،
فيكون له في هذا الليل دوي يخيف ، والحركة متصلة ، والشوارع بمتلثة
بالناس .. ولكن السلامة توالى ، ووقف النهر عن الارتفاع ، ولم يقع
البشق الذي كانوا يخشونه ، وكان قد تصرم الهزيع الاول من الليل ، فأمن
الناس وتفرقوا إلا قليلاً قاموا بجرسون النهر ، ودخلوا بيوتهم وولجت داري
استريح ، فما لبثت أن ذهبت في رقدة عميقة .

رأيت فيما المياه تنساب في كل جهة ، تغني أغنية الرعب ، تقتلع البيوت
ثم تلقي بها الى بعيد ، وتلج في باطن الارض ثم تعلقها بما عليها ، وتصعد في
الجو ، ثم تنزل كالبلاء المصوب . ثم انصدع صدع عظيم وهويت الى قعر
الهاوية ، وكان حولي مئات من النور والفهود والافاعي ، وسمعت رعداً
شديداً ، ورأيت برقاً ومطراً ، ثم عادت الصخور تجري تدحرج آلافاً
من الصخور ..

ففتحت عيني .

واذا الحلم حقيقة ، واذا الصيحة في الحية ، والقيامة قد قامت ،
وصفارات الحراس ، وأبواق الجنود تصدح باستمرار ، والنساء يولولون
ويعدون ، والاطفال تبكي وتركض في كل مكان ، والرجال تصيح طالبة
النجدة ، وتبينت وسط الضجة الكلمة الرهيبة : كسر النهر .. النهر انكسر !
وتدفق سيل العرم !

إن هذا النهر الذي جاء من قم الاناضول الشاهقة ، وسلك على السهول
المسرعة ، والصحاري المجذبة ، قد تعب من سيره الطويل المضي ، فجاء
يستريح على هذه الحقول التي زخرفها الربيع ، وأزهر فيها الناونج ، وفتح
الورد والقرنفل والفل ، واترع نسيمها العطر ، فيحيل ذلك كله الى
صحراء قاحلة .

جاء يغرس في هذه الحياة الرخية السعيدة بذور اليتيم والفقر والنكد .
ولكن الذئب علينا ، لو أنا أنشأنا له مأوى يستريح فيه ، ومريراً
ينام عليه ، لهجع فيه الى ايام الصيف ، ثم أخرج بالبركة واليمن الى
اراضينا وبلادنا !

* * *

ترك الدار وخرجت اسبح في هذا الخضم من الناس ، أدفع النساء
والشيوخ والشباب ، لأصل الى الشاطئ فأعمل عملاً .

ولست أدري ماذا أعمل ؟ ولست أحسن السباحة ، ولست أعلم
ما الفائدة من ذهابي ...

ولم أفكر في شيء من ذلك ، لان الانسان لا يفكر في ساعة الخطر ،
ولمّا يعمل .

فلما وقفت على الصدع هائي ، وارعيت ان النمر قد أفلت من القفص ،
وخرج يعدو مجنوناً مستطار القلب ، كاشراً عن انيابه ، يزجر ويزار ،
ويبرق ويرعد .

ان الماء يتدفق الى العلاء بقوة الديناميت ، ثم ينزل على الحقول ، فيحضي
مكتسحاً كل شيء في طريقه :

يقتلع الاشجار الضخمة ، ويقذف بها كأنما هي عيادات الكبريت ،
وينسف البيوت كأنما هي علب من الورق ، ويتدفق من كل جهة ..
وقد ابتلع صوته المدوّي كل ضجّة ، وما إلا الاسماع بترنيلة الموت
المستبرة ..

وكان لمنظره في ظلمة الليل صورة لاتوصف ..

واقدم الناس ، يسابقون الماء ليقيموا في وجهه السدود . ليقيدوا هذا
النمر الهائج ، بحمية منقطعة النظر ، وحماة فادرة المثال ..

واقدمت اخوض هذه اللجة من الناس ، لأصل الى هذه اللجة
الطامية من الماء .

أمشي في ظلمتين : ظلمة هذا الحشد المزدحم ، وظلمة الليل البهيم .

أعرض لرهبتين : رهبة الليل وسواده ، والسيل واندفاعه .

أصغي الى الحنين : لحن الروح على ألسنة الناس ، ولحن المول على
لسان النهر ...

ولم أخشَ شيئاً .. لأنها ساعة الخطر ..

ووكنت يا ساعة الخطر !

أنت لحظة الانسانية ، أنت التي تورق فيك اغصان الحب ، ويزهر
فيك الاخلاص ، ويعود الناس فيك إخواناً متحابين ، قد خرجوا من
أطعامهم ، ومات في نفوسهم الحسد والبغضاء ، وعاش فيها الحب والتضحية
والاخلاص والوفاء .

.

تقدمت الى الامام ولكني لم اصل الى شيء ، لان الناس كانوا
يستبقون العمل ، ويرعون الى الموت ، كآب العمل غنيمة ،
والموت وليمة ...

وكانوا بصرخون صراخ الحمية ، وهمقون باسم الوطن والمروءة
والشجاعة .

ومرت على ذلك ساعة كاملة والصدع يتسع ، والماء يزداد اندفاعاً ،
فكسّرت الايدي النشطة ، وجمدت الصيحات والاناشيد على الشفاه ، وخامر
الناس اليأس ..

هنالك انتهت فاذا انا اسمع النشيد الذي ارتقبه واصبو اليه ، ليس نشيد
الوطن والمروءة ، ولكنه اجل واقرى ، النشيد الذي له قوة السيل ،
وعظمة البحر ، وبهاء الشمس ، وحلادة الصخور .
النشيد الذي لا يقوم له شيء .

النشيد الذي كان اجدادنا يتفنون به كلما حافت بهم شدة ، فيدكون به
ل حصن ، ويكتسحون كل عدو ، ويخلصون من كل خطر .
النشيد الذي يحيل الجبان بطلاً ، واليأس املاً ، والطفل رجلاً .
ذلك هو نشيد الرجال والنساء والاطفال بصوت واحد يجري على قرع
طبل ، فيشق الليل ، ويخضع له كل من يسمعه ، حتى النخيل والحقول
السحاب والنجوم ، وهذا النمر الثائر .
الله اكبر - الله اكبر - لا إله إلا الله .
الله اكبر - الله اكبر - والله الحمد !

. . .

وبدأ الصراع كرة ثانية .. واقبلوا على العمل بهم لا تثنني ، وقلوب
تليق ، وسواعد لا تكلن ..
وصبّ النشيد في عروقهم روح الظفر .. فظفروا ..

. . .

وعندما كانت الشمس تطبع اول قبلائها على جبين الكون كان الموكب
لافر قد رجع ، يحمل اجل ازهار الرياض التي انتقدتها وحماها من
رق .. يمشي فيه الجنود والطلاب ، بصفوف منتظمة ، قرأت فيما اروع
شعر ، الحياة .. كما تلوت في هذه الجماهير المنثورة في كل مكان
لغ « نثرها » ..

وكان الإشراق يكسو الوجوه ، وغناء النصر يرتقص على اللسنة .

فوقفت أحبي هذه المواكب الماجدة ، حتى غابت عني في طريقها
الى بغداد :
الف تحية ايها الابطال الذين مشوا الى الموت ، لينقذوا بلادهم
من الموت .
الف تحية ايها الشعب القوي العامل الجريء .
الف تحية ايها الطلاب المبرزون الذين حموا الفؤوس والمعاول ، واقاموا
من جسامهم سداً في وجه هذا السيل الطامي .
الف تحية ايها الجنود البواسل ، يا حماة الديار ، يا من وطنوا
نفوسهم على محاربة كل من يريد ببلادهم شراً ، سواء لديهم أكانت
جباراً من جبابرة الانس ، او عفريناً من عفاريت الجن ، او قوة
من قوى الطبيعة . . .
لكم في الف تحية والف سلام !

★ ★

صورة ...

« إن وجدت في هذه الكلمة صراحة في الوصف ، فلا
تلموا الطبيب فإنه يصف المرض ، ليعين الدواء »

كتبت عام ١٩٣٧

كان شاباً متأثراً ، قد أصيب بمرض التجمل ... فلم يكن يجيء الى
المدرسة إلا متأثراً مستعداً استعداد عروس^(١) ليوم زفافه ، قد صف شعره
ودهنه وعطره ولبده ، وعقربه على صدغيه ، وجمل وجهه وصله وصنع
به ما است أدري ، وكشف عن أعالي صدره وأحاط عنقه بهذه العقدة ، التي
يقتن في عقدها ، واختيار لونها ، واتساقها مع الحلة التي يلبسها افتنائاً ، ولا يزال
أبدأ يده اليها يتلمسها ، ويصلحها ويطمئن عليها .

وكانت اذا نظر غض الطرف من الحياء ، ودانى بين جفونه ،
واذا تكلم تكلم بصوت حالم لين ، كأن ألفاظه تقول شيئاً ، ولهجته
ونبراته تقول شيئاً آخر ، تقول : إن رجولة صاحبي رجولة مزورة !

واذا مشى تتننى وتخلتص وتكسّر ، وماج جسمه موجاناً ، وذهب
كل عضو منه في فاحية كأن جسمه منفكك ، قد قطعت أوصاله ، ونصبت

(١) العروس في اللغة للذكر والانثى .

عراه وانحلت لوالبه ... واذا دعوته اقبل اليّ يتهادى ويئيل ، فاذا وصل الى حيث اكون وجد اقرب متكأ فاستند عليه ، كأنه بناء لا يقوم إلا اذا استندته بدعامة ، واذا كلمته خجل كأنه فتاة في الحدر ، وأجاب بصوت خافت يكاد يبتلعه الخجل ، فكنت ازعق في وجهه من الغيظ ، ثم أطرده طرداً .

ولم يكن ينصرف الى علم أو يقبل على درس ، لان عقله قد سال على جوانب جسمه خرقاً وثياباً ، ولم يبق منه في داخله ، ما ينفع لعلم او درس ، فهو دائماً ينظر في عطفه ، ويتأمل ثيابه ، ويخرج من جيبه مشطه ومرآته ، ولولا بقية من حياء لأخرج ايضه واحمره وقلم شفقيه .

وكنت أراه في باحة المدرسة فأراه غريباً عن هؤلاء الشباب لا يطبق حراكاً ، ولا يحسن لعباً ، ولا يدفع عن نفسه اعتداء ، وما فيه من الرجولة إلا اسمه وبذلته .

• • •

وحاولت اصلاحه ، وتعمده بالنصح والارشاد ، فكنت كمن ينفع في غير ضرر ، فأبست من اصلاحه وكرهته وأبفضته ، وجعلت أزوي بصري عنه ، وأتناساه وأهمله ، ثم افتقدته فلم أجده ، ثم علمت أنه قد فارق المدرسة .

ومر شهران ، ثم رأيت في مكانه طالباً جديداً من الطلاب الذين يتدربون على الجندي يلبس الثوب العسكري وعلى وجهه طابع الرجولة : له شاربان كاملان ، وأثر اللحية ظاهر على خديه ، والقوة والصرامة

باديتان في عينيه وملاحه ؛ وكان قوي النظرات صمغاً جهور الصوت ،
ذكياً مقبلاً على الدرس ، فطناً المعياً ، وكانت سريع الحركة جهم النشاط ،
إذا دعوته أقبل يسير بخطى موزونة ، يطا الأرض وطاً شديداً ، وقد
نصب قامته ورفع رأسه ، فإذا قام بين يديّ ، قرع رجلاً برجل ثم رفع
يده بالسّلام لا كما يرفعها مثلي أو مثلك ؛ بل كما يرفع يده الجندي
بالسيف يستلّه من قرابه ، وإذا كلمته أجاب بجرأة وادب ، وكنت
أواه في ساحة المدرسة ، فأراه على اجتماعه وإقباله على العلم ، قويا
نشطاً يصارع الطلاب ويباطهم ، فإذا تمكن منهم وعلا عليهم ، عفا عنهم
وأبقى عليهم ، فكنت أعجب من قوته ونبله ، وعلمه وفضله ، واكبر
فيه هذه الصفات .

.

ثم انني أحببت أن أشجّعه وأضرب منه للطلاب مثلاً فنكلمته وأثنت ،
وقلت : كم بين هذا وذاك من فرق . ١١
فصاح الطلاب : ومن هذا ومن ذاك ؟ لأنها شخص واحد !
قلت : ويحكم ! فأي معجزة هذه التي بدلته شخصاً آخر ، وأنشأته
إنشاءً جديداً ؟
قالوا : بأستاذ ... إنه تدرب على الجندي .

.

يوم الفتوة في بغداد

كتبت سنة ١٩٣٩

ذلك هو يوم الجمعة ٢٧ كانون الثاني، الذي انتقلت فيه بغداد كلها، فاستقرت في شارع الرشيد وشارع غازي ، لتري مركب الفتوة الذي يصل بين غازي والرشيد ، فينشئ المجد الجديد ، على أساس المجد التليد ..

وقد أتى الناس من كل فج عميق ، ليشهدوا بأعينهم كيف غدا أبناؤهم أسوداً صفاراً ، أشبالاً ، يدافعون عن الحمى ، ويحبون العرب .. ويبصروا ببعائهم الآتي المجيد ، والمستقبل الزاهر ، وقد أشرق فجره من عيون أولئك الفتيان ، التي تشرق بريق الحماسة والاخلاص ، وقلوبهم التي تنطوي على التضحية والثبات ، وألسنتهم وهي تنشد النشيد الذي يوقظ الموتى ، ويصب الحياة في الصخر الصلب ، وأيديهم التي تمزق البنادق ، تقول بلسان حالها : إنا نحقق ما نقول !

مرحى يا فتيان العراق ، عشم للعروبة ، وسلمتم للإسلام !

. . .

أقبل الناس على شارع الرشيد ، قبل أن تقبل الشمس بوجهها على بغداد ، فملؤوا جوانبه ، واستأجروا مداخل الخازن ، وشرفات المنازل

والفنادق ، حتى بلغت أجرة المتعد الواحد ربع دينار ، ولا ترى في شرفة
مقعداً ، إلا على رصيف مكاناً ، وتعلق الناس بالاعمدة ، وأشرفوا من
الاسطحة ، وكانت الوجوه في بشر وانطلاق ، كما كانت الطبيعة مهتلة
باسمة في هذا اليوم المشهود ، والشمس بازغة ساطعة ، والانس في
الارض وفي السماء .

وانتظر الناس ساعات ، لا يملّون ولا يضجرون .

. . .

وكنيت في غرفتي في (الاعظمية) أهم بالنزول الى بغداد ، ثم يردني
خوف الزحام ، وكراهية الاختلاط ، وخشية ان يبتلعني هذا اللج
البشري الهائل .

وكنيت انظر في ركाम الكراسيات التي تبلغ المئات ، والتي جمع فيها كل
تلميذ ما يستطيع من الأخطاء والحقائق ، لأموت بتصحيحها ، وتقدير
درجاتها ، فلا أمسها ، ولا أدنو منها ، ولما أنصرف عنها أفكر في
بلدي وأهلي .

أهجع آمناً في بغداد ، وآنس مطمئناً ، وأهلي في دمشق بمشون
على النار ، لا يدرون ألى موت أم حياة ؟

أستمتع بالجمال ، وأتذوق الحب ، وأنفق الأماسي الهادئة في مسارب
الاعظمية ، أساير (الشط) وأنفياً ظلال النخيل ، والشام قد ثار من نحت
البركان ، وزلزلت منه الاركان ، وهب أهله هبة المستعيت ، يريدون
الحياة كاملة ، أو الموت صرفاً زعافاً ؟

فكرت في ذلك فامتلات نفسي كآبة وحسرة ، فقيمت على غير شعور
مني وانطلقت الى بغداد ، وما أدراك اليوم ما بغداد ؟

. . .

بلغت (الباب المعظم) وعهدي بالمسكان أت فيه شوارع وميداناً ،
فاذا هو بحر من الخلائق يوج بعضها في بعض ، وقد غرق في هذا البحر
الشارعُ واختفى الميدان ، فوقفت حائراً لا أتقدم ولا أتأخر .
وطال بي الوقوف ، وخشيت أن أبقى كذلك الى المساء ،
فتشددت وقلت :

ويحك يا نفسي ! لماذا الجبن ؟ وعلام التأخر ؟
ولماذا كنت تدفعيني الى ان أمارس ألوان الرياضة ، اذا كنت لاتستطيعين
النجاة في مثل هذا اليوم العصيب ؟

وظننت نفسي قد استندت ، فشرت عن ساعدي ، وأقبلت أدفع هذا ،
وأزيج ذلك ، وكلما دفعت عني واحداً حل مكانه عشرة ، فخارت قواي
وأيست من النجاة ، واعترفت لنفسي بأني لم ابلغ بعد مبلغ عنقرة (عنتر
القصة) الذي يقبض على الرجل فيرفعه بيده فيضرب به الآخر
فيقتل الاثنين ...

فوقفت فاستند علي الضغط من كل جانب ، حتى أحسست كأن
أحشائي ستخرج ، وضاق نفسي ، ولكن كل ضيق الى فرج ، فلم يكن
إلا أن فرج الله عني فبعث رجلاً من رجال الشرطة أعرفه فعملني الى
الفندق الذي أريد .

. . .

وكان في شرفة الفندق اخوان لنا ينظرون ، فتعدت معهم ، وابثنا
ننتظر الموكب ، ونتحدث عن الفتوة في العراق ، ونستمع الى احاديث
الاخوان وهي للأديب كنز لا ينقذ .

وأشهد ان في العراق فتوة وشبابا ، وأنه شعب عرف طريق الحياة
فسلوكه . واقد رأيت من مظاهر الفتوة في بغداد ما جعلني أبكي من
فرط التأثر .

رأيت في بغداد طفلاً يدرج على باب منزله ، لم يتعلم المشي ولا النطق ،
وهو يحاول ان يخطو خطو الجند ، ويوعز بإيمار القائد : 'يس' . 'يس'
اي : يسرى . ينى ...

رأيت في بغداد اطفال المدارس الابتدائية ، يسرون سير الجنود .
يقودهم مدرس بلباس ضابط ، يدرهم على فنون القتال .

وذعبت مع الطلاب الى معسكر الانكليز في (سن الذبان) لمباراة
رياضية ، فرأيتهم قد قلبوا المدينة الانكليزية الى حي من احياء العرب ؛
وأفاضوا عليها روحهم وشبابهم وفتوتهم ؛ فقلت : تبارك الله ! اذا
كان جيش من لاعبي الكرة لا يتجاوز الحسين شابا فعل هذا كله ؛ فكيف
لو جاء الجيش العربي : جيش المستقبل ؟ وسألت الطلاب في الامتحانات هذا
السؤال الازلي : ماذا يريد احدكم ان يكون ؟

فكان جواب الاكثرين انهم يريدون ان يكونوا جنوداً ؛ مشاة
وركباً ؛ وبجارة وطيارين ؛ يدافعون عن امتهم ويذبون عنها كل طاغية
او جبار ينبع من الارض او يهبط من السماء .

ورأيت اثر الروح العسكرية واضحاً في الطلاب ؛ فالطاعة من غير

استخذاء ؛ والحرية من غير تردد ؛ والنظام من غير جمود ؛ تلك هي صفات طلاب العراق .

وإن في مدرستنا الغربية للثمينة طالب ؛ والمدرسة سائرة سير الساعة المتقنة وليس في ادارتها الا مدير ومعاون ؛ مع ان مثل هذا العدد يحتاج في دمشق الى عشرة ضباط (معيدين) ثم لا تكون المدرسة كالساعة ؛ وانما تكون كالبركان الذي يهدد كل لحظة بالانفجار^(١) .

فيا ليت شباب دمشق يعرفون الروح العسكرية^(٢) ؛ كما عرفها اشقاؤهم شباب العراق .

. . .

لبننا ننظر الى الضحوة الكبرى ؛ والناس لا يزدادون إلا تدفقاً ؛ فكأنهم سيول تصب في هذا الخضم العظيم ؛ والشارع يروج بالناس موجاً ؛ ويزخر بالخلائق ؛ وكلهم يتطلع وينظر ؛ وكلهم : يسأل متى يأتي الموكب ؟ وعمال الشركة الاميركية للسينما ماثلون بآلاتهم في الشرفات والزوايا ؛ ليصوروا معالم الحياة في بغداد .

وإن البحر ليموج ويزخر ؛ وان امواجه لتضخب وتضطرب ؛ واذا بالعبزة قد وعت ، فانشق كما انشق البحر لموسى ؛ وانفتح الطريق ؛ فنظر الناس ونظرنا ، فاذا الاعلام العربية تلوح بألوانها الاربعة التي تجمع شعار دول الاسلام ، كلها بأميتهما وهاشمها وعباسها ، وتروم لفضائل العرب كلها :

بيض صحائفنا سود وقائعنا
خضر مرايعنا حمر مواضعنا

(١) كان ذلك حين كتب المقال .

(٢) قد عرفوها الآن .

واذا الموكب قد لاح من بعيد ، كما يلوح الهلال الهادي ، للقائد
الآيس . ويسطع كما يسطع نجم الامل في ظلمة القنوط ؛ واذا موسيقاه
القوية تدوي في الآذان ؛ فيكون لها اثر في النفوس احلى من نداء الحبيبة
في نفس المحب المشرق .

فحبس الناس الكلمات ، ووقفوا الانفاس ؛ يتطلعون ويترقبون ؛
والموسيقى تعلو والفتيان يتقدمون حتى وصلت طليعتهم ..

فما استطاع ذو شعور امسك دموع الفرح والفرحة والتأثر ان تسيل ؛
وارتجت الارض بالتصفيق والهتاف ؛ كما ارتجت من قبل بهذه الموسيقى
القوية المحبوبة ؛ وهذا النشيد الذي يسمع من خلاله صوت المستقبل البارح
وتلوح في اثنائه خيالات المعارك المظفرة .

وكانت الفتيان اطهاراً مثل الزهر الياقع ، لدينا كأغصان الروع ،
ولكنهم كانوا اقوياء كدوح الغاب ، أشداء كأسود العرين ، وكانوا
يسيرون صفوفاً متعاقبة على عرض الشارع ، مرفوعة رؤوسهم ، منتصبه
قاماتهم ، موزونة خطاهم ، على اكتافهم ينادقهم وعدة قتالهم .

. . .

لا والله ما أحسست بالعجز مرة عن وصف ما أرى مثل عجزي اليوم .
ومنذا الذي يقدر على وصف هذا الشيخ الهام ، ذي الشيبة السائلة
على صدره وهو يلحظ حفيده الصغير ، يحمل البندقية ويثني مختالاً مزهواً ،
يحلم بأجداد المستقبل ، ويذكر ما درس من أجداد الماضي ، فلا يطيق منع
الدموع ان تسيل من عينيه وتتهدر على لحية البيضاء .

اني لاسمعه، بحمد الله على ان لبلاده جيشاً من أبناءها ولم يكن يرى إلا
جيشاً واغلاً او دخيلاً .

ومنذا الذي يقدر على وصف هذه الام التي أمسكت بيد طفلها الصغيرين
وهما يترثبان ليلحقا بالموكب ليريا أخاهما ، وطققت تدعو الله دعاء هامساً
يتصعد من خلال الزفرات أن يحفظ لها ابنها ، والوطن بنيه : « يارب سلمهم ،
ما شاء الله كان .. يارب سلم .. » وتبكي !

ومنذا الذي يقدر أن يصف شارع الرشيد في هذا اليوم ؟
يا أيها الرشيد ! قم تر المجد الذي بنيته لا يزال قائماً .
قم تر الاحفاد قد نهضوا يسلكون طريق الاجداد .
قم ترنا لم نضع الامانة ولم نهلك التراث .
قم تر مجد غازي يتصل بمجدك كما اتصل الشارع بالشارع^(١) فعادا
.. مهيأً واحداً ؟

هؤلاء بامولاي عدة المستقبل ، وهذا الجيش وهذه الآمال !

. . .

وفكرت فجأة في بلدي وأهلي ...
نحن هنا في فرحة والنار مشتعلة في فلسطين ، والنار توشك أن تلتهم
في الشام !
أي مصيبة لم يرها الشاميون ، وأي خطب لم ينزل بهم ؟

(١) اي شارع الرشيد وشارع غازي .

أما خرب الأقوياء بلادهم ضرباً بالمدافع وقصفا بالحديد وحرقاً بالهيب ؟
أما أخذوا ذمهم وأبدلهم به ووقاً أفقرت به الخزائن وافترق به ذوو
الغني واليسار ؟

أما قطعوا البلاد حكومات ، وجعلوا من القرى دولات ، وقسموا
الناس بدداً ليجعلهم طرائق قديداً ؟

أما صبروا على هذا كله ؟

بلى ، لقد صبروا حتى لم يبق في قوس الصبر منزع ، واحتلوا
ما لا يحتل ؟

فلما نفذ الصبر ، وبان طرق المحتل ، هبوا هبة الحليم إذا غضب ،
ويأما أشد غضب الحليم !

أنكون نحن في فرجة ، وقومنا في الشام في ألم ؟

وكدت أشعر بالحزن في قلبي ، ثم قلت : لا ، إن هذا هو الجيش
الذي يجب أن يفرح به قومي.

إن بطولة العراق وفتوة العراق صفحة من سفر المجد العربي ، كما أن
تضحية فلسطين ، وجهاد دمشق ، ونهضة مصر ، صفحات منه أخرى.

إن هذه كلها قوى متحدة ، تتوجه وجهة واحدة !

ثم إن دمشق لا تخاف شيئاً ولا تخشى !

وماذا تخاف ؟

الرصاص ؟ لقد فتح له أهلها صدورهم !

المدافع ؟ لقد أعدوا لها منازلهم !

الليث والكل ؟ لقد تعودوا أبناؤهم وأمهاتهم !

لأنهم يريدون أن يحيوا حقاً أو يموتوا .
فهل يغلب شعب وطن نفسه على الموت ؟

. . .

وكان جيش الفتوة لا يزال يسير ، والارض ترتج بالموسيقى
والنشيد والهتاف والتصفيق والدعاء والبكاء ، فعاد الامل الى نفسي قويا ،
هذه (بيه مونت) الوحدة العربية ، هذه (بروسيا) العرب ، هؤلاء عدة
المستقبل ، وهذا الجيش ، وهذه الآمال !

فيا أهل دمشق ، ويا أهل فلسطين ، ويا أيها العرب ، في قاص
من الارض ودان .

اطمئنوا فإن لكم جيشاً !

ولما جاوز جيش الفتوة شارع الرشيد واتجه الى شارع غازي ماج
البحر واضطرب ، وتدفقت وراءه الجموع ، وأسرعت أنا الى (الاعظمية)
لادرك الصلاة .

وكانت نفسي تضطرم بأجل المواطنين ، وأبهي الصور ، ولكن جمالها
لم يستم في نفسي .

إن في الموكب لنقصاً ظاهراً . إن فيه لعباً أفسد رواده ،
وأضاع بهجته . لقد تطلق بالرحل بياضه ، وتدنس طهره ... إنما كان

في الامكان ان يقدم المركب ساعة أو يؤخر ساعة ، حتى لا تضيع الصلاة
على هؤلاء الفتيان كلهم ؟

هذا هو النقص ، فيا ليت الوزارة لم تنسه ... يا ليتها ساقطت
هؤلاء الجنود كلهم الى المساجد ليقوموا فيها الصلاة ، فان أجدادنا
ما غلبوا عدوهم إلا بالصلاة ، والالتجاء الى الله ، وهوان الدنيا
وأهلها عليهم ، وابتغائهم لإحدى الحسينين : الظفر لإعلاء كلمة الله ،
أو الشهادة !

أفنتحسب أننا نستعويض بالحديد والنار عن الايمان ؟

هيات والله هيات . ما النصر بالسلاح ولا بالذخائر ، ما للنصر
إلا من عند الله .

. . .

من ذكريات بغداد

كتبت سنة ١٩٤٦

ما الذي هاج في نفسي هذه العشية ذكر بغداد ، ونشر أمام عيني
ما انطوى من ذكرياتها وما مات من أيامها ؟
ما الذي وجعني الى تلك الليالي حتى كأني - لفرط ما تشوقت اليها ،
وأوغلت في ادّكارها - أعيش فيها ؟
أي سحر فيك يا بغداد جذب قلبي اليك ، فلم أنسك إذ أنا في بلدي
الحبيب ، ولم ازل أحسن اليك وأشتاقك ؟
بغداد ... يا بغداد ، عليك مني سلام الود والحب والوفاء ، على
المعظم على الصليبخ على الكرخ سلام الفؤاد المشوق
الولهاث .

على ليالينا « بين الرصافة والجسر » . ما كان احلى تلك الليالي !
لقد كنت أشكو فيها ألم الغربة واحن الى الوطن ، فصرت في وطني
أحن الى تلك الغربة وليالها ، وما ظلمني موطني وما انكرني ، وما كنت
لأذمه صادقا فكيف اذمه بما ليس فيه ، ولكنها هي الدعة ، ملتمسا
واجتوبتها : إني اشكو ألم الراحة ، فأعطيني به راحة الألم .
ذلك الألم العبقرى الذي يفتح القلوب بآيات الشعر ، فاني منذ فقدته لم
اعد احسن بأنني ذو قلب !

على الوستمية . . ألا تزال الوستمية جنة من جنات الارض ، حافلة
بالعاشقين وبالخور العين ، أم طاف بها طائف من هذه الحرب فجفت خملها
وهجرها قاصدوها ؟

على الصاحبة . . برومي صاحبة دمشق وصاحبة بغداد .
على (قهوة المطار) ، على ظبيها على جاذرها الف سلام .
على الجسر . . . يا جسر بغداد ، كم جمعت وفرقت ، ماذا رأيت
وصممت ، كم وصلت بين قلوب وقطعت ، انت الصلة بين ماض لنا كان اعز
من النجم واسمى ، وآت لنا سيكون اسمى من النجم واعز .
يا جسر بغداد ، يا مربع الحب والادب والمجد ، يا من كنت مرة
الارض ، وكنت لي مسرة القلب ، عليك في الف سلام .
يا ربوعاً تركت فيها قطعاً من حياتي ، وخلفت فيها بقايا من فؤادي ،
ماذا صنعت بفؤادي وحياتي يا ربوع ؟ !

ويا دارنا في (الاعظمية) من حلّ فيك بعدنا يا دار ؟
وهل صوّح لبعدنا زهرك أم ضحككت من بعدنا الازهار ؟
وهل حفظت آثارنا أم لقد طمست من بعدنا الآثار ؟
لقد كنت انت مستقرتي ومثواي ، وكان اليك مقرتي من دنيائي ،
وكنت شاهدة افراحي كلها واتواحي ، وكنت مستودع أسراري
واخباري ، كتمتها عن الناس إلا عنك ، فهل كتمت سرّي
هذه الجدران ؟

هل ستأت ما رأيت من نقائدي التي اخفيتما عن الاصدقاء
والإخوات ؟

ما هذه الدنيا يا ناس ؟ هذه الدار التي كنت أفرّ إليها من رحب
الحياة ، وزحمة المجتمع ، فأغلق بابها عليّ ، واخلو فيها الى نفسي ،
فأحسّ أنّها جزء مني ، وأنا لي وحدي ، صارت غريبة عني ، تنكرني
وتجهاني ، كأنني لست منها وليست مني ، وصارت لغيري ، فإذا ما جئت
أطرق بابها ، رددت عنها ، أو قبلت فيها ضيقاً غريباً لا أرى إلا ما يراه
الضيف ، ولا ألبث إلا ما يلبث ... لا يأسكنها ؛ ما أنا بالضيف
الغريب ، إنما كانت دارني ، إن لي فيها حقاً ، لي فيها ذكريات ، فيها
من حياتي ، من انقاضي ، من روحي !

ودار العلوم ؟ خبروني سألتكم بحق الاخاء عن ظلال أيامي فيها . سئى الله
ظلالها صوب القلوب !

خبروني ، ألا رجل كريم ، يحسن الى هذا البعيد النائي ، فيمر بالدار
عند مسجد الامام الاعظم ابي حنيفة النعمان ، فيصعد الى الغرفة التي تطلّ
من هنا على صحن المسجد المنور المبارك ، ومن هناك على صحن المدرسة
المزهر المشرق ، فيحيي عني هذه الغرفة ، فأبني سكنتها عاماً ، كان لي عام
دنيا ودين ، وفيما جددت طباعي وأفكاري وكونت نفسي .

ثم ليجل عني في هذه المدرسة ، في حدائقها ، في صحنها ، في ممراتها
ودعاليذها ، ثم ليصعد سطوحها الواسعة التي تمتد حتى تتصل بقبة المسجد ،

وتشرف على تلك الحديقة العتيقة ، وتلك المقبرة المهجورة ، وعلى طريق
السكاظمية ، فإن لي على هذا السطح ذكريات ...

ولماني إن أنس لا أنس يوم العيد ، وقد دخلت المدرسة من ساكنها ،
فلم يبق فيها غيري ، فأوغلت في هذه السطوح ، وصعدت حتى انتهيت الى
أصل القبة ، ونظرت فإذا أنا على بحر من النخيل ، تهتز قممه من تحتي
كأنها الامواج في اللجة الساكنة ، وتظهر في فُرَج النخيل طرق
الفلاسين ، وقد خرجوا مع اطفالهم واولادهم بشباب لها مثل لون الزهر ، ثم
تحتفي خلال الاشجار ، كشاعر ساهر أو محب متعزل ، ذهب ينادي
ذكريات الوصال .

ودجلة عند منعطف الصليخ تلوح بعظمتها وجلالها ، كأنها سماء من نور
ركبت في الارض ؛ وبغداد ، بلد الاساطير والاحلام ، يبدو طيفها على
حاشية الافق البعيد بشبابها وماذنها ، كأنه (هو أيضاً) أسطورة ساحرة ،
يقصها الافق المشرق على الدنيا .

والى اليمين قباب الذهب من السكاظمية ، والقبة الخضراء التي توى تحتها
رأس ملكٍ شابٍّ ، وشابٌ مليك ، حين توى غازي بن فيصل بن
الحسين بن علي !

لقد لبثت مكاني حتى شملت الظلمة الكون ، وضوأت المصابيح في
شبابيك المنازل فنظرت ... اليها ، أنا الغريب المنفرد ، الذي يمضي عيده
وحيداً على سطح المسجد ، لا رفيق له الا ذكريات سمادة ولت تؤلمه
وتحزن في قلبه ذكراها ، وفكرت في أمري لو اصابني مرض فلبثت هنا شهراً ،
فتنذا يصل اليّ ؟ من يسأل عني ؟

وأني فؤاد يخفق من أجلي بعد أن سكنت ذلك الفؤاد الذي كان خفاقا
بحبي ، فؤاد أمي ، الى الابد ؟ نظرت اليها فغبطت أهلها إذ يغلقون
أبوابهم على الشمل الجميع ، والاهل الحضور ، والانس والسعادة .

ونزلت في طريق الحديقة العتيقة ، وإذا أنا أتعثر بحجر . فنظرت اليه ،
على شعاع ينحدر اليه من مصباح الشارع ، فإذا هو قبر متخلف من المقبرة
التي كانت هناك في غابر الازمان ، فامتألت نفسي بصورة الموت ، ولم
أعد أمس في هذه القصور الخضرة الا الربيع الماضي الذي مات ، ولا أرى
من الناس إلا قلوبا ميتة دنست في صدور اصحابها ، ولا أجد تراب الارض
إلا ناساً كلوا مثلنا وماتوا ... فأكلت هذه الاشجار اجسامهم ، وشربت
دماءهم ، فمنه كان زهرها الذي نشم عطره ، وغصنها الذي نأكل ثمره ...
ولم أر الدنيا الا موتاً في موت .

وأمت غرفتي وأنا غارق في بحر من الافكار السود ، فسمعت العشاء
يرن في صفاء الليل قوياً عذباً يومض ضياؤه في طبقات الظلام ، إذ يحمل
اسم الله منيراً مشرقاً ، فقممت الى الصلاة ، فلما قضيت وخرج الناس ،
رأيت المؤذن ينادي على عادته بذلك الصوت الممدود : الفاتحة ! ثم يغلق
المسجد وينصرف ، ويبقى وحدي ، ليس في المسجد ولا في المدرسة
غيري ، وبينهما باب من داخل ، فأعود الى غرفتي .

وما كاد يكتهل الليل ، حتى سمعت الصوت في المسجد ككرة اخرى ،
ولكنه خرج هذه المرة ضعيفاً وانياً ، في نغم حزين ، من لحن الصبا ،
فنظرت من شباك ، فإذا في ارض المسجد الذي اشتمل عليه الظلام ثلاثه
مصابيح بترولية خافتة النور ، تكشف عن نفر من الناس ، لا يبدو منهم

إلا أرجلهم وظلال لهم ممتدة فكأنهم الجن ، أو كأنه فلم يخيف من أفلام
الف ليلة ... ثم سمعت تكييوات الجنازة ، فنزلت فرأيتهم يصلون على
ميت في فموش .

فسألت : من هذا ؟

قالوا : مؤذن المسجد !

فانصرفت لأدوّن في دفترتي ما عرض لي ذلك اليوم من صور
وخواطر ، ثم أضعت الدفتر ونسيت الخواطر والصور ، ونسيت أن
في الدنيا موتاً ...

كذلك أمضيت يوم العيد في دار العلوم ، وإني على هذا أشتاقها
وأشتهي أن ترجع لي أيامي التي مرت فيها . فيا رحمة الله على أيامي في دار
العلوم وعلى من بقي من أهلها السلام !

. . .

وإن أنس لا أنس (ليلة البلاط) ، ياليت ليلة البلاط نعود !

لقد رجعت أنا وأحد اخواني العشيّة من الاعظمية الى بغداد ، فتركنا
السيارات وجفونا الطريق الاعظم ، وسلكننا محجّة على سيف دجلة فسرنا
فيها ؛ وكانت تنكشف لنا قارة فنسلكها ، وتضل (طريقها ...) ثارات ،
فتتبع بين النخيل ، وكان النهر ابدأ عن أيماننا ، يبدو حيناً بصفحة البيضاء
المشرقة التي تشبه وعد الوصال ، يشرق للمحب في ليل المهجران ، والامل
البسام يلوح لليأس في غمرة القنوط ، ثم يحجبه عنا النخيل ويستوره الظلام ،
كما يخنف الحبوب بدلاله الوعد ، وتمحو الحياة بواقعها سطور الاحلام ،

وتطمس صور الاماني . وكانت صديقي يحدثني حديث ماضيه فيثير في نفسي عالمًا من الذكر الاليمية ، كلما نزلت به في اعماق قلبي ، ودفنته في هوة النسيان ، وحسبته مات ؛ انبعث فجأة ، كأنا ولد الساعة ، عالم فيه صور أبي وأمي وآمالي .

واستغرقنا في خواطرنا ، وغبنا عن حاضرتنا ، فما نهتأ إلا جندي مجربته المسددة الى بطوننا وبندقيته الموجهة الينا ، وصاح بنا ؛ أن ارفعنا أيديكما ؛ ففعلنا .

قال : ما أدخلكما حمى (بلاط الملك) ، وفيم انذركما فلا تلقا ؟
لقد هممت أن ارميكما بالثار !

وكانت تلك هي الاوامر ، ما بعد الانذار إلا النار .

فقلنا : نحن اديبان ، رأيت اديباً نفق معه انذار ، او افاد معه تخويف ؛ ثم إننا برمنا بالحياة ، لا نرى فيها إلا ماضياً لا سبيل الى إرجاعه ، وأملًا لا وصول اليه ، ولو أنت رميقتا لمننت علينا بميتة سهلة ، نرجو من بعدها ثواب الشهداء ، وإن الموت باعسكري درجات ، وألوان بعضها أطيب من بعض ، وما نظنك سمعت بدعاء الأعرابي الذي سأل الله ميتة كميتة أبي خارجه ، لان هذه الجفوة منك دللتنا على أنك لا تقرأ كتب الادب . أفتحب أن تعرف كيف مات ابو خارجه حتى صار موته أمنيّة ؟

أكل حنيداً ، وشرب نبيذاً ، وغام في الشمس ، فمات شبعان دفآن ريان !

قال الجندي ، ولم يفهم منا شيئاً :

سَنُو لَانْتو يَا بَنَهْ ؟

قلنا : نحن معلمون !

فضحك وأرخى ستان بندقيته .

وقال : معلمون صحيح ، أما غير مخبلين ، (وغير هنا فلنا كيد ومخبلين ، أي مجانين) ! وتركنا نخفي لان المجنون لا يسأل ...

تلك هي ليلة البلاط ، واني لا اذكرها إلا أسفت على هذه الميته الحلوة التي فانتني ، وخشيت ألا أتمكن من مثلها ، وأظن صديقي آسفاً مثلي ، إلا إذا استطاب حياته بعد الزواج وتعليم البنات الالاب ...

أما حياتي أنا فليس فيما لذة تستطاب ، وليس فيما ألم يستكره .
أعني أنني لست انساناً يحيا ولكن (شبتا) يعيش !
تلك هي ليلة البلاط^(١) .

.

(١) هذا البلاط الذي كانت تحميه حراب الحراس من قريب ومدافع الانكليز من بعيد ، تمنع الناس ان تدنو منه فترى ما وراء جدرانه من فسوق وعصيان ، وتبصر من فيه على حقيقته : امداً على الناس ، ونعامة بين يدي المستعمر ، من كان يظن ان هذا البلاط ستقوضه ايدي الشعب على جثث من كانوا فيه ، وكانوا هم المالكين ؟
ثم ثبتت سرحة الديوقراطية في مقبرة الملكية ؟
ألا لا يفتر بالدنيا احد !

مالي كل هذه اليلة ذهني ، ولم يسعني شيطاني ؟

مالي أكتب عن بغداد ، فلا أذكر من أيامها إلا هذا الحديث الثاني ،
وابام بغداد ، مواسم للمجد واعياد ، ولياليها فرحة الفؤاد ، وأمرّة
للعب ومهاد ، وماضيها مآثر وبفاخر واجداد ؟

مالي لا اتحدث عن دجلة ، وباطول شوقي اليها ، والى زوارق
الحبين وهي تمضي فيما حاملة مكري ، والاغاني تتراقص على
امواجها ضاحكة مرحى ، والسبك المسقوف . خبروني ، ألا تزال
مرفوعة سقوفه ، مشتعلة ناره ، أم هوت من هول الحرب الدعائم
وانطقات النار ؟

مالي لا أناجي اخواني وتلاميذي الذين عشت دهرأ من عمري بهم
ولهم ، وأسألمهم أذكرون هذا المعلم ...

أم قد مرت في حياتهم مرور شخص (السينا) ثم تنقضي الرواية ،
ويسدل الستار ، فكأنما لا شخص مرت بهم ، ولا (فيهم)
عرض عليهم ؟

أما أنا فاشهدوا يا تلاميذي وبيا اخواني أني ما نسيتكم . أنسي
نجدة وعلياً^(١) ونزار بن البطل الشهيد ، إلا اذا نسي الاب أولاده ؟
أنسي الاخ الاكبر (بهجة) العراق ؛ وقد طالما قبست الجزل من
فضله ، ورأيت الفداء من نبلة ؟ ما نسيت ، ولئن كبا بي

(١) علي الراوي رحمة الله عليه .

القلم الليلة ، فسأعود الى الحديث عن بغداد ، وما كل مرة
يكبر الجواد .

وهي اخواني وتلاميذي وبغداد وأهلها سلام الله ورحمته وبركاته .

• • •

يوم من أيام بغداد

« لعل ذكرى هذا اليوم تهز بغداد ، دار الاعزة
الصيد ، فيكون فيها مصر وقضيتها يوم مثله ... »

كتبت سنة ١٩٤٧

طلعت جريدة (البلاد) على اهل بغداد ، صباح اليوم الاخير من آذار
دام ١٩٣٩ ، وفي صدرها مقالة (الكاتب شامي يحمل اسماً كاسمي) ،
ليست كالمقالات ، جملاً ترصف ، وكلمات تؤلف ، ولكنها قلب
يتفطر ، وديناميت يتفجر ، عنوانها : « يا غازي . يا غازي .
يا غازي » . وفيها :

« يا غازي ، تدعوك الايامى الثاكلات ، يا غازي يناديك اليتامى
المظلومون ، يا غازي يستنصرك الضعفاء العزّل ، والعجائز الركّع ،
والاطفال الرضع . يا غازي يمتف باسمك الشباب الذي يواجه
بحسه المصفحات ، وبصدره الدبابات ، ويحارب الدولة الطاغية
الغاشية ، لا سلاح له إلا إيمانه ؛ وأمله بالله ؛ ثم بالعرب ؛ وبك يا مليون
العرب ؛ يا غازي !

يا غازي : دعوة غريق ينادي منقذه القوي !

يا غازي : هاتف مريض يدعو طبيبه الآمي !

يا غازي : إهابة مشرف على اليأس بالسيد المأمول !
يا غازي : صرخة الدم ؛ واللغة ، والدين ، والمجد ، والجوار .
يا غازي : المدد ! المدد !
يا غازي !

لقد نادت امرأة واحدة ، في سالف الدهر : « وامعتصاه » فاهتز لها هذا العرش ، عرشك . وماج لها هذا الشعب ، شعبك . وخرجت الجيوش ، جيوش بغداد ، فلم ترجع إلا وفي ركبها المجد والنصر .
فمن غيرك ، وغير العراق لهذه الأمة التي حملت البلاء ، ورأت الشدائد ، وشاهدت ألوان الموت ، وخانها الخليف ، ونقض عهده لها القوي ، وجرد دباباته الضخمة ، ومدافعه وعتاده ، ليحارب بها النساء والأطفال والشيوخ ؟
من غيرك وغير العراق لهذه الأمة التي تنادي اليوم : « واعراقاه » .
« واغازياه » !

فقم يا أيها (المعتصم) ، لبها على (الحيل البلق) فان كتاب التاريخ أعدوا صحفهم ، وأمسكوا بأفلامهم ليكتبوا المفخرة مرة ثانية للعراق ، ولملك العراق !
إن الأمة التي أحبت فيصلاً ، وأحبها فيصل تناديك اليومَ يومَ الخطب يا بنَ فيصل !
إن الشعب الذي بايع فيصلاً ، هو على يعمته لك ، فهل تضيع شعبك يا أبا فيصل ؟

إن القصر الذي كان يسكنه أبوك ملكاً ، والذي كنت تلمو في حدائقه
طفلاً ، هو اليوم مقر عدو العرب ، منه يصدر الأمر بقتيل رجال العرب
ونساء العرب ، يسكنه اليوم العدو الذي بغى على فيصل ، وسرق
منه عرشه . فأنقذ تراث فيصل ، من عدو فيصل ، وعد أنت الى قصر
فيصل ، يا بن فيصل !

يا غازي

الشباب الذين سقطوا في شوارع دمشق شهداء البغي ، ماتوا وهم
يهتفون باسمك يا غازي .

المجائز تلقين أبناءهن المصريين على ارض الوطن ، وهن يهتفن
باسمك يا غازي .

يا غازي ، كم من طفل وطفلة ، عدا عليهم الظالمون ، فتلفقوا
حولهم يفتشون عن المنفذ الذي حفظوا اسمه ، ورفعوا رؤوساً يسيل من
جراحها الدم ، وأشاروا الى الشرق بأصابعهم الصغيرة الخضبة بالنجيع الأحمر ،
ورددوا اسمه : يا غازي !

يا غازي ! بك علقوا الآمال ، ومنك ينتظرون العون ، أفتدع هذا
الشعب بين برائن الوحوش يعيشون بكرامته وأجاده وحياته ، وكرامته
كرامة العرب ، وأجاده أجادهم ، وحياته حياتهم
أتركمهم يموتون ، وبغداد تستروح رائحة الربيع العطر ، وتستمع الى
جرس النشيد الحلو ، وتنام على فراش النعيم ؟

يا مليكي !

هذا يوم من أيام التاريخ له ما بعده ، فلا يقولن " التاريخ :
« يا ليتهم نصرنا الشام في وقت محنته ! يا ليتهم لم يدعوه وهن
الحديد والنار » !

الشام في كرب شديد ... الشام في ضيق !
لقد ضجّ لما يعاني الشام قبر محمد ، ياسليل محمد !
لقد اهتزّ الحطيم وزهزم ، ومادت جبال مكة ، يا حفيد
شريف مكة !

يا ملك العرب : الشام يدعوك .
الشام يستجير بك .
الشام يهتف باسمك : « يا غازي . يا غازي . يا غازي ! » .

★ * *

نشرت المقالة في أشهر جرائد بغداد ، فألهبت شبابها .
وشباب بغداد كوّنت أعصابهم من نور ومن نار ، وخلقت أيديهم
من الندى ومن الحديد ، وملئت قلوبهم نخوة وسماحة ، وأتوت
شجاعة وكرماً .

فإذا حاربوا أذلوا عزيزاً وإذا سالموا أعزوا ذليلاً
وإذا عز معشر زال يوماً منع السيف عزهم أن يزولا
وشباب بغداد ، جند العروبة حيثما كان للعروبة أرض ، وحماة الحمى ،
وأسد الغاب .

إن أطلقت رصاصة في الشام ، أو في مصر ، أحسوا أزيها .
وإن أشعلت فيها نار وجدوا حرّها .
وإن سقط شهيد كان عندهم مأتمه .
وإن أصيب جريح كان في ضلوعهم ألمه .

وشباب بغداد إن غضبوا ، الإعصار الجارف ، والبحر الطافي ،
والصواعق المنقضة ، والموت - هل من الموت مهرب ؟
وشباب بغداد إن رضوا ، النسيم الرخي ، والربيع الطلق ، والسلسيل
العذب ، والحياة - هل في الوجود أحلى من الحياة ؟

وعلم شباب بغداد ، أن ديار الشام في خطر ، وأن (حلفاءها) قد
نقضوا عهدهم لها ، وعادوا كما كانوا أعداءها ، فأسروا كرامها ، وسودوا
لثامها ، وجرعوها من (مدنيتهم ...) الصاب والحفظ المسموم ، وأن
شعب الشام قد لبس لأمة الجهاد ، ونزل الى الشوارع يجالد البارود
بالحجارة ، ويرد الدبابات بالخنجر ، حتى سقطت الدور على أهلها فغدت
لهم مقابر ، وامتألت بالأبرياء السجون ، واشتد الخطب وعظم البلاء ، وقل
الناصر ، وانقطع المدد ...

... واشتعلت الحماسة في صدور شباب بغداد ناراً ، ومشيت هذه النار
في قلوب الشعب ، فلم تمض ساعات حتى صار حديث الشام حديث الناس
في كل مكان ، في القهوات ، والطرق ، والمنازل والمدارس ، ولم يعد
الطلاب يصغون الى درس ، أو يستمعون الى مدرس ، يشتغلون
بالمفاضة بين الفرزدق وجريير ، وبحساب بعد القمر ومساحة سيبريا ،

والشام غارقة في دماء بنينا ، عابقة برائحة البارود ، رازحة تحت أثقال
المدافع ، تظوها نعال الفرنسيين والسنغال ؟

أيطلب الشكلاطة من لا يجد الرغبة ؟

أيقرأ الأشعار من تأكل بيته من حوله النار ؟

إنهم يريدون أن يطيروا الى الشام ، ليطبقوا في ساحاتها ما تعلموه في
دروس الفتوة من فنون القتال .

وفوجيء الناس في المساء ، بإذاعة هذه المقالة من محطة الملك
الخاصة ، في قصر الزهور ، فلما انتهى المذيع من تلاوتها ، كانت
مفاجأة للناس أشد وأجعد ، حين سمعوا صوت الملك غازي الذي
يعرفونه ، يقول :

« لبيك . لبيك يا سورية ! » .

فكانت هذه الكلمة سحراً ماضياً جعل كل منزل في بغداد ثكنة ،
وكل قهوة معسكراً ، وكل رجل جندياً شاكي السلاح ، ينتظر
الامر بالهجوم على الجن والإنس والعفاريت لاياب شتياً ، ولا يخشى
أحداً ، ما دامت الحرب حرباً مقدسة لنصرة الشام ، والقائد الملك
الشاب الحبيب .

وكانت حال لا توصف ، ولا تصوّر ، ولا تمحور الايام أثرها .

. . .

ودعا ناظر الثانوية المركزية في صبيحة الغد نفراً من المدرسين
العراقيين والشاميين منهم كاتب المقال ، وأفهمهم سرّاً ، (ولا ضير

اليوم في إذاعة هذا السر) أن الحكومة ترغب في مظاهر احتجاجية على فرنسا ، وأنه ترك لنا أمر تنظيمها ، فكان ذلك أحب إلينا من خزائن المال نعطاها ، وأسمى المراتب تمنحها ، وخرجنا فأخذنا في عملنا .

وكان في بغداد وضواحيها عشر ثانويات ، فاقسمنا ثانوياتها العشر ، ينفر كل منا بإعداد طلاب مدرسته للمظاهرة ، وتفقنا في هذا الإعداد واستبقنا فيه ، وكنت امراً أكتب ولكني لا أحسن بيتاً واحداً من الشعر ، فبحثت عن من ينظم لمدرستنا نشيداً لهذا اليوم فلم أجده ، فنظمت أنا أنشودة مهلهلة النسخ ، ضعيفة التأليف ، لكنها خارجة من القلب وتقع في القلوب ، ثم وضعت لها (أنا ...) لحناً لفته من ألحان الأناشيد التي كنت حفظتها قديماً ونسيتها الناس ، وعمدت إلى لوحات صنعناها من القماش ... فكتبت عليها كلمات تعبر عن الحقيقة التي امتلأت بها نفوس البغداديين مثل :

« الله جعلنا أمة واحدة فلن نفرقنا يد مخلوق »

« نحن جند الوحدة ، إننا سنكتبها بالدم »

« من تعدى على دمشق فقد اعتدى على بغداد »

« لبيك لبيك يا سورية ، إننا آتون »

« يا سورية ، لن تضامي وشباب العراق في الوجود »

وسهرت مع الطلاب في كتابتها وتلوينها ، وأنا الذي لم يمكّن من قبل (ريشة) قط .

. . .

ولم أتم تلك الليلة بل كنت أنتقل من مكان الى مكان ، حتى إذا أصبحنا بكرت الى ساحة الاجتماع ، وهي الساحة الفسيحة بين دار الكتب والمتوسطة الغربية ودار المعلمين العليا ، فوجدتها تعج بالطلاب من كل مدرسة ، وكلهم بلباس الفتوة لا يمتاز طالب منهم من طالب ، فكيف أجمع طلاب مدرستي وأصفهم ؟

وظفقت أصرخ ولا سامع ولا مجيب .

ومن يسمع النداء في هذا المحشر الذي جمع فيه عشرة آلاف طالب متحمس كلهم يصيح ويتكلم ؟

ثم الهمني الله فكرة فدعوت عريفاً من عرفاء الطلبة ، يمتاز من شرائط الفضة على ذراعه ، فانتصب أمامي ، وحيّاً ووقف وفقة عسكرية ينتظر مني الأمر . فقلت له : صف هؤلاء الطلاب .

فأعاد التحية وقال : حاضر .

وانصرف ، وأنا أعجب منه كيف يقول : « حاضر » ، وقد عجزت من قبله عن ذلك ويعجز عشرة من أمثالي !

وإذا به يدعوني طالباً معه يوق ، فينفخ به ، فتقع المعجزة ، ويغمّ الصمت ، كأن المتوكل قد طلع بضوء وجهه ...

... .. فانجلت تلك الدجى والنجاب ذاك العنبر

ثم ينفخ فيه أخرى ، فإذا هذه الحلائق كلها ، تغدو صفاء طويلاً صامتاً مرتباً .

وقدمني إخواننا فقلت فيهم خطبة . ومشينا ، حتى اذا بلغنا أوائل ميدان باب المعظم ، قابلتنا مواكب الشعب الهائلة آتية من حيّ الفضل وتلك الأرجاء ، فتدافى الجبلان ، والتقى البحران ، فعاد البحرأ واحداً ، تلتطم أمواجه ، وتهاو أنباجه ، بحرأ من الناس ملا باب المعظم وافواه الشوارع المغضية اليه ، والارض البراح من هنا ومن هناك .

وقام الخطباء في كل مكان فلم يبق في اللغة كلمة تمجيد إلا قيلت للشام ، ولا لفظة تحقير إلا سبقت لفرنسا ، ولا جملة تدبر عن القوة والإيمان والاستعداد إلا ألقيت على الناس ، ولا شيء يزعز القلب ويحرك العزائم إلا كان . ثم مشى هذا البحر .

والى أين تمشي البحار ؟ والشوارع قد سدت بالناس ، والناس على الأرصفة وفي الشرقات وعلى الأسطحة . وفي كل مكان هتاف ونداء ، فالطلاب ينشدون ، والعامّة يحذون ، والنساء يزغردن ، والتكبير والتهليل ، والمواكب تمتد ، والحلائق تتوافد ، حتى حلت بغداد كلها في شارع الرشيد من باب المعظم الى الباب الشرقي ، وكان يوم ما رأيت له مثيلاً قط .

. . .

إننا لم نخض في ذلك اليوم ملحمة ، ولا شهدنا معمة ، ولا أرقنا لعدوّ دماء ، ولم نجاوز فيه الكلام ، ولكنه كلام جعل كل فتى من هؤلاء الفتيان بطلاً ، وترك في نفسه ذخيرة غدّه بالقوة دهرأ ، وصبّ في نفسه من العزة ما جعل نفسه أممى من النجم ، واكبر من الدنيا .

كلام ولكنه كان أساساً من الصخر الراسي في صرح الوحدة العربية
غداً والاسلامية بعد غد .

كلام ولكنه أُرهب العدو وطمع قلبه ، وردّه عن قصده ، ... فم
من عدوانه .

كلام ولكن بمثله تحيا الامم ، وتبنى النهضة ، وتكتب تواريخ المجد .
كلام ، وإن من الكلام لفعلاً من أعظم الفعال ، وقوة من أمضى
القوى ، ومجداً من اسمى الاجاد .

★ ★ ★

إن الشام يذكر لك يا بغداد في عرس الاستقلال ، ما اسديت اليه في
بؤس الاحتلال ، فهلا اتخذت عند مصر يداً مثلها تذكرها لك يدُ الدهر ؟
إن مصر ، يا بغداد ، أختنا الكبرى في العروبة ، وقضية مصر
قضيّتنا ، ووادي مصر واديّنا ، وعدو مصر عدونا ، وإننا إن نخذلُ
مصر نخذلُ بلادنا ، وإلا نكنُ معها نَحْنُ أمتنا

يا بغداد ، يا ذات المجد ، يا مشوى البطولة ، يا عرين الأسود ، إن
مصر قد عدا عليها العادون ، وكشّر لها عن انياب الذئب ، من كان يجيئها
أيام الحرب في قروّة الحمل ، سائلاً يطلب منها العون والمال .

إنه يريد الآن ان يفرق بين اسودها واسمرها ، واعلاها وادناها ،
ويسرق منها نصف واديا ، أفتناهي يا بغداد في سرُّر الامان ، ومصر
في الشوارع تصارع الذئاب ؟

يا بغداد ! اليوم يومك ، يا بغداد ! !

نحية وشكر

« زار وفد النادي العربي بغداد سنة ١٩٣٨
فكان الاحتفاء به عظيماً ، وكان اكرامه
سابقاً ، فنشرت هذه الكاتبة في جريدة البلاد ،
نحية لأهل بغداد وشكراً »

يا أهل العراق :

أرحموا قلوب اخوانكم من أهل الشام ، فانها ملوءة بحب العراق ،
وشعبه الجيب ، وحكومته المجيدة ، وأرضه وميائه ، وماضيه وحاضره ،
وكل ما يحتويه العراق ، فأرحموا .. لا تحملوها فوق ما لا تطيق ،
لا تكلفوها من حبكم شططا ، لا تحملوا عليها كرمكم كله ، فانها قلوب ،
لا تطيق القلوب حمل البعير الخضم ...

انما قلوب ، هل تملك القلوب إلا الحب ؟ والالسة ؟ هل تطيق
الالسة إلا الشكر ؟ هذا جهد المقل ، فلكم من اخوتكم ، من أشقائكم
الساكين داركم الاخرى ، الصغيرة ، القائمة على سفح قاسيوت ، وضاف

بردى ، الحب كله والشكر كله ، خالصاً لكم .
ولكنكم ، يا أهل العراق ، ما رحم هذه القلوب ، ما اقتصدتم
في الكرم .

* * *

ما رحمتوها ...
هؤلاء فتیان دمشق ، قد عادوا وعلى ألسنتهم سورة جديدة من
سور الحمد ، وقصيدة من قصائد الثناء .
فمتى تناولوها ؟ هل تركتم لنا (نحن الشاميين) وقتاً ، ألم نلأ الوقت
بالثناء عليكم ؟
قد عادوا وفي نفوسهم ذكرى نيرة ، سيشتع نورها في دمشق فيجلو
لأهلها كرمكم وعظمتكم .

* * *

قد عادوا وفي نفوسهم ذكرى عطرة ، سيفيض أريجها على الغوطة ،
فتتضوع من أزهارها عطور بغداد .
ومتى خلت أزهار الغوطة من عطور بغداد ؟

• • •

يا أهل العراق :
إن كل حفلة أقمتموها لهذا النادي إنما هي تكرمة لدمشق ، وسطر

جديد من كتاب الاخوة التي ألغت سفرها العصور ، ونظمت ابوابها يد
الحق الابليج ، والواقع القاهر ، وكانت مادتها العقيدة واللغة والنسب
والجوار ، أما العنوان فقد أملاه الله من فوق سبع سموات : (إنما
المؤمنون إخوة) .

أفيتناقش الناس بعد ذلك في (الوحدة) أن تكون أو لا تكون ؟



يا دكتور طه حسين !

انك لن تحل عقدة عقدها الله ، انك لن تستخرج من نفوس المصريين
إيمانهم ، ولن تنزع من ألسنتهم عريبتهم ، بحديث صحفي تدلي به ، وأنت
في (مارييت باشا) مسافراً الى فرنسا^(١)...

ويا .. يا (أولئك) الناس ؟

إن خشبتين منصوبتين في عرض البادية ، لن تمنعا البحريين إذ يلتقيان ،
لن تمحوا وحدة العقيدة واللغة والنسب والجوار والذكريات والآمال . فلا
تختصموا ولا تنازعوا ..

قد وضع الصبح لذي عينين !



(١) وهو حديث عندي نصه منشوراً ، فيه انكار للدروبة ، وحرب للوحدة ، وقلم طه حسين
كالخرباء كل يوم له لون ، وما لونه الا لون ما حوله ، ولقد كتب في الكفر وليس
كافراً ، وكتب الآن في الاسلام وليس متديناً ، وطرق كل موضوع وما يمتد
موضوعاً مما طرق .

ومنذ الذي يقول ان أعضاء النادي العربي كانوا غرباء في بغداد ؟
ومنذ الذي يقول أن وفد الفتوة العراقية كان غريباً هذا
الصيف في الشام ؟
اعقلوا يا ناس !

فان الالماني يدخل فرنسا ، وان الفرنسي يلج المانيا فلا يمشي
فيها ساعة حتى يرى كل شيء قد تبدل ، فلا اللغة باللغة ، ولا العادات
بالعادات ، ولا الوجوه بالوجوه ، أما العربي . .
أما أنا في بغداد

ماذا تغير علي ؟ أليس ماضي بغداد ماضي ؟ وحاضرها حاضري ؟
أليس الرشيد خليفتي ؟ وغازي ملكي ؟ والوحدة والعزة أهلي ؟
وبراتيه ؟ ألا تبكينني كما تبكي البغدادي ؟ وفلسطين ؟ ألا تشغلني كما
تشغله ؟ ألا أفخر بأجداد بني العباس كما يفخر بأجدادهم ؟
أليست اللغة لغتي ؟ والمسجد مسجدي ؟ والعادات عاداتي ؟ والوجوه
وجوه أهلي ؟
فماذا بعد هذا ، يا ناس ؟

فتحية طيبة ، وشكراً شكرياً ، يا أهل العراق ، يا حكومته
الجليلة ، ويا شعبه الحبي ، على ما أكرمتكم به وفدنا ، على ما أكرمتكم
به اخوانكم من سكان الجانب الآخر من المنزل ، ولكن
لا . لا شكر .

جل الأمر عن الشكر .
لا شكر . إن الأخ لا يشكر أخاه !

. . .

يا أهل العراق ، لا أقول هذا ترفاً ولا أريد عليه مكافأة ، ولا أقوله
باسم النادي فلست منه ولا انتسب إليه ، وما كنت شريكه في الذي ناله
من إكرام ، ولا دعاني أحد إلى حفلة واحدة من هاتيك الحفلات كلها ،
ولكن أقوله لأنه الحق ولاني أحب العراق ، مشرق أملنا اليوم ، ومصدر
النور لنا ، ومعقد رجائنا ، فن شاء فليصدق ، ومن شاء فليطر مع
الظنون السود ثم ليبط حيث اراد .

اني أحببت العراق قبل أن اعمل فيه موظفاً ، وسأحبه بعد أن أدع
للعمل^(١) ، كما يحبه اليوم كل عربي ، وكل مسلم ، واني ارفض ان آخذ على
حبي أجراً من أحد ، فصدقوا اذا شئتم !
يا أهل العراق نحية طيبة وشكراً وشكراً وحقق الله الرجاء .

. . .

(١) وهانذا بمد كتابة هذا الفصل بشتين وعشرين (٢٢) سنة لا ازال على هذا الحب .
لا يقل احد في العراق اننا قد قصرنا في الوفاء !

نوري السعيد

أذيعت في آخر سنة ١٩٥٦

أبدأ هذا الحديث بـ (الحمد لله) ، لا الحمد التقليدي ، الذي تفتتح به الخطب ، والذي لا يعدو كلمة تقال باللسان ، لا ينطق بها الجنان ، بل أنا احمد الله حقيقة ، احمده من اعماق القلب ، على أن أرانا الفجر الصادق ليوم الحمد الجديد ، الحمد للعرب والمسلمين .

ولقد كنا اذا فخرنا من قبل ، اسكتنا السيوف التي صدئت في الاغمار ، والعزائم التي هجمت في النفوس ، والقوى التي استرخت في السواعد .

وكننا اذا ذكرنا الماضي العزيز ، كذبتنا شواهد الواقع الدليل ، فضجت السيوف في أعماقها حتى سلّت ، وثارت العزائم في نفوسنا حتى وثبت ، وعادت الى سراعدنا قواها ، ورأينا نحن من أنفسنا ، ورأت الدنيا منا ، اننا اهل لماضيها ، وان إرث البطولة لم يفقد من قلوبنا ، وأننا أبناء أولئك الجدود .

لم يكن ينقصنا (كما قلت لكم مرة) إلا السلاح ، السلاح الجديد الذي

قصر العثمانيون ، فلم يحمواه يوم ظهر ، ولم يتعلموا العلوم الجديدة التي
صنعت هذا السلاح ، ولبشوا على ما عندهم ، فسبقتنا الناس بعد ان كنا
نحن السابقين .

كان ينقصنا السلاح فقط ، فلما صار في ايدينا منه ، استطاع رجل
من مصر ، أن يقول (لا) ، حين قالت الدول الكبرى (نعم) ،
وأن يقف بمصر ، بل ببلد صغير من مصر ، في وجه دولتين كانتا تعدان
يوماً أقوى دول الأرض ، وكنا نظن انهما لن تغلبا ، وانه لا صيبل
لنا عليهما .

ولئن تسليح العرب والمسلمون ، التسليح الكامل ، فليقتن في
وجه أهل الأرض جميعاً ، وليحاربوا الجن والانس والشياطين ،
وليسببوا بشقراة سيوف المجاهدين وعلى أساس هاجم الشهداء ، مجدداً
جديداً ، يزري بالمجد التليد .

. . .

وشيء آخر يا أيها السامعون ، هو اننا لم نغلب في اشد ايام ضعفنا ،
لم يغلبنا المستعمرون بقوتهم ، ولم ينتصروا علينا بسلاحهم ، ولكن
كنا نحن نهدم بايدينا مجدنا ، كانوا يضربون بعضنا ببعض ، وكانوا
يسلطون بعضنا على بعض !

من قضى على حكومة الامير عبد القادر في الجزائر ؟
وهل كان يغلب أو يستسلم لولا ان وجد أعداؤنا أناساً منا
يعينونهم علينا ؟

هل كان يغلب لولا الحائثون ؟

ومن ذهب بثورة الامير عبد الكريم من بعد ؟

والثورة السورية ، من قوض دعائها ؟ الفرنسيون الذين جاؤوا من
باريز ، أم فرق المتطوعين من الذين يسكنون سورية ، والذين أطعمتهم
سورية وسقّتهم وآزتهم وأكرمهم ؟

ومن ضمن لانكائرا ، وفرنسا كل نصر نالته في مئة السنة
الماضية ؟

هل ضمن لانكائرا النصر إلا الهنود ؟

وهل ضمن لفرنسا النصر إلا المغاربة ؟

ومن أخذ الشام من آل عثمان ، ورفع يدهم عنها حتى وضع
الانكائز والفرنسيون أيديهم علينا إلا نحن ؟ نحن الذين خدعنا بوعودهم
واطعنا الى عهودهم ؟

كانوا يسلطون بعضنا على بعض ، وكانوا يضربون بعضنا بأيدي
بعض ، وهامم اولاء يلجؤون اليوم الى هذه الحطة القديمة .

يريدون أن يضربوا العرب بالعرب ، والمسلمين بالمسلمين ، فجاءوا
بعبد الانكائز^(١) ، وابليس السياسة العربية ، بنوري السعيد ، وبهذا
الحلف الملعون ، حلف الشياطين .

وحسبوا أنهم اذا كسبوا نوري السعيد فقد كسبوا العراق ، لان العراق

(١) اردت به عبد الآله ، ولكن لم يمكن يومئذ التصريح باسمه .

كما كانوا يظنون ، ويظن كثير من الناس خاتم في اصبع نوري السعيد ،
فان شاء ادخله في اصبعه ، وان شاء نزعه من اصبعه .
وان الوزارة قيد لمشاروته ان شاء تسلسلها ، وان شاء
تخلص عنها .

وانه الرجل القدير الجريء المحنك ، الذي ليس له نظير .
وانا اعرف العراق كما اعرف الشام ، وانا رجل عاش في العراق
اربعة سنين ، واكل من خبز العراق ، ولي في العراق اخوة واصدقاء ،
ولي في العراق تلاميذ ، كانوا تلاميذي من عشرين سنة ، وهم
اليوم من اركان العراق ، فاذا تسكمت عن العراق ، تسكمت
كلام الحبير .

ان الوزارة قيد اشارة نوري السعيد حقيقة ، ونوري السعيد قد
جريء محنك لاشك في هذا ، ولكن قرة نوري السعيد ليست بمنزلته عند
الشعب ، بل لمكانته من الانكليز .

وما اذكر ان حضرت مجلساً خلال اربع سنين عشتها في العراق ، وخلال
ذوراني المتعاقبة للعراق ، وذكر فيه نوري السعيد ، إلا اجمع الناس
على وصفه بانه عبد الانكليز ، ولعنوه واعلنوا البراءة منه .

وترده على الحكم تسع مرات الى الآن ، ليس لانه صديق الشعب ،
ولا لانه المسيطر على العراقيين ، بل لصلته بالانكليز .

ومواهبه كلها ، وقدرته ، وجراته ، وحسنه ، كل ذلك مسخر
لخدمة الانكليز ، وما قيمة المقدرة اذا لم تكن مسخرة للحق ؟

إن إبليس أقدر بلائك ، وأجراً ، وأشد حنكة ، ولكنه إبليس .
وجند إبليس كلهم من الأصوص والقتلة والمجرمين ذرو قدرة .

هل يسرق القص ويرسم الخطط للسرقة ، ويقتل القاتل ويعد العدة
للاقتل إلا وهو قدير ؟ فلا قوة للقدرة وحدها إن لم تكن معها الفضية .

ونوري السعيد له مزية الثبات على مبدئه ، انكايزي ، انكايزي عن
عقيدة وإيمان ، كما يقولون ، ولكن إبليس كذلك له مزية الثبات
على المبدأ عن عقيدة وإيمان ، إبليس إبليس ، ما بديل ولا غير ، ولكن
هذا الثبات لا يسوّغ أن نرضى عنه ، بل نلعنه مرتين ، مرة لأنه كان
شريراً ، ومرة لأنه ثبت على الشر ، ولم يتحول عنه ، ولم
يتب منه .

أما حكم الله في نوري السعيد وأمثاله ، فهو في نص القرآن :
« لا نجد قوماً يؤمنون بالله وباليوم الآخر يوادّون من حادّ الله-
ورسوله ، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم »
صدق الله العظيم .

وقال تعالى : « ومن يتولهم منكم فإنه منهم »
فتوري السعيد تولى الانكايز ، فهو من الانكايز ، هو المستر
نوري السعيد .

وباليتة كان يوالهم موالاة الند للند ، بل هو نعمة معهم ،
وأسد على أمته .

أسد ؟ استغفر الله ، ان الأسد لا يهاجم امرأة ولا صبياً ، الا اذا

اضطر الى ذلك ليعيش ، وغلبه الجوع ، ونوري ، عفواً المستر نوري ،
لا يستطيع ان يهاجم إلا النساء والاطفال واولاد المدارس .
يضرب أبناء العراق ، برصاص العراق ، ويسخر اموال العراق ،
لحرب شعب العراق .
لماذا ؟ ليقى في الحسك ، ليقى فيحقق للانكليز ما يريدون .

* . *

واني ما كنت احب والله ان ادخل نفسي هذه المداخل ، وكنت
أنالم حينما أجد المحطات العربية تتبادل السباب بعد ان كانت تسب
كلها اليهود .

ومن كان السبب ؟ هذا الرجل الذي باع نفسه للانكليز ، كما باع
(فاوست) نفسه للشيطان .

وللعامة أمثال عجيبة ، والمثل العامي يقول : لا تلوهموا الذي يسب
الناس ، بل لوموا الذي يدعو الناس الى سبه !

ما كنت احب ان اصب نوري السعيد ، ولكن لما تحققت من انه يريد
أن يثيرها في سورية شعواء مجنونة ، ويسلط عليها أعداء العروبة والاسلام ،
ولما رأيته يضرب شعب العراق بالنار ، ولما قرأت أسماء المعتقلين وهم
اخواني وأحبائي وهم خيرة رجال العراق ، لم اعد استطيع الامتناع عن
سب نوري السعيد .

اسبه لا يرى العراق من ذنبه ، ان العراق بريء من جرائم هذا

الرجل ، ومن المؤامرات التي اعدتها .
ان شعب العراق ، أمضى شعوب العرب ، وأشدّها أباء ، ووافها
للمروبة ، ولكن من طبعه ان يحتمل طويلاً ثم يثور ، فإذا ثار ، فلن يهدئه
الحديد ولا البارود ولا النار .
ولقد شهدت ثورته على بكر صديقي ، وكيف اودى به ، وقد
كان بكر صديقي أرجل من نوري وأقوى .
وشهدت ثورته على نوري يوم دبر قتل الملك غازي . لقد كنت هناك
ولي على هذه الجريمة التي دبّرها عدو الله الدلائل .
وشهدت الوثبة على معاهدة بورت سميت .
وها هو ذا العراق يثور ، وإذا ثار العراق فقد انتهى نوري .
انتهى ، انتهى هذه المرة ، وانتهى الى الابد ، فلن تقوم له
قائمة بعد اليوم .
انها قضية أيام فقط وتسمعون خبر انهيار هذا الصنم الذي نصبه
الانكليز ، لقد تنبه العرب ولن يعودوا الى عبادة الأصنام ولن يضرب
بعضهم بعضاً بعد اليوم^(١) .

★ ★

(١) لقد انهار الصنم ، ولسأل الله ان يعيد الصفاء بيننا كما كان .

نداء لم مجد مجيباً

أذيع قبل ثورة العراق بأسابيع

يا جلالة الملك فيصل

في آذار سنة ١٩٣٩ كانت سورية تخوض معركة من معاركها المتصلة في سبيل الحرية ، تحارب العدو الفاصب ، وتتلقى بصدور ابنائها رصاصه وناره ، وتتف بأجساد رجالها ونسائها وتلاميذ مدارسها امام دباباته ومصفحاته .

كانت تناضل الفرنسيين كما يقاتل العراق اليوم الانكليز ، ولكن من كانت تقائلهم سورية كانوا فرنسيين لحماً ودماً ولساناً ، وكانت أسماؤهم جورج وميشيل ، ومن يقائله العراق اليوم ، عرب الدم واللسان ، ولكنهم انكليز القلب والحب ، عرب المظهر وانكليز الجوهر .

قد اتخذوا لهم أسماء مستعارة يتخفون وراءها : (نوري) وفلان وفلان ، وحقيقة أسمائهم ايدن وتشرشل وكلوب ا و كنت يا مولاي أعمل في بغداد ، كنت مدرساً فيها بعيداً عن أهلي وبلدي ، فكأن بلذع فؤادي أمي ، أن أبيت آمناً ، أتقياً ظلال النخيل على سيف دجلة ،

واضحى بشمس الاعظمية ، وأهلي هناك يتجرعون غصص الموت، ويعالجون
سكرات الخوف .

وما قامت قبل ذلك مظاهرة ، ولا كانت معمعة نضال من سنة ١٩٣٨
الا كنت فيها ، لاني كنت تلك السنين كلها ، رئيس اللجنة العليا لطلاب
دمشق ، فماتت حركة يتحركها الطلاب الا كنت أنا محركها ، أو كنت
مشاركاً فيها ، ار على علم بها .

وحاولت أن أستاذن وزارة المعارف العراقية وأعود الى دمشق ، فما
تركني الفرنسيون أسافر ، فكتبت هذه المقالة التي أتلو على جلالتهكم
فقرات منها ، ونشرتها في صدر (جريدة البلاد)^(١) ، فما كان المساء ،
وكان لأبيك الملك غازي في (قصر الزهور) محطة اذاعة خاصة ، غير
محطة الاذاعة العراقية ، فما كان المساء حتى سمع الناس المقالة تذاع
من محطة القصر ، وسمعوا بعدها صوت أبيك يا مولاي . يقول :

أبيك ، أبيك .

وراح يعمل .

وتسربت الى الناس اخبار الخلاف بينه وبين الانكليز ، هذا الخلاف
الذي تعددت مظاهره ، وتكرر حتى بش الانكليز من غازي، ووضعوا
خطة الجريمة ، جريمة قتله بمحادث السيارة المصطنع ، على يد نوري

(١) عدد الخامس ٣٠ اذار سنة ١٩٣٩ وقد مرت الاشارة اليها في هذا الكتاب .

السعيد ، ويد آخر^(١) يعرفه أهل العراق كبيرهم وصغيرهم من شهد تلك الأيام .

وكان شعب العراق ، يغلي حماسة للجهاد ، وحمية لنصرة سورية ، ولو فتح له الطريق لمشي الى الشام مشياً ، يشارك أهل الشام محنتهم ، ويقاسمهم مصيرهم ، واقد أتمت في العراق اربع سنين ، فما رأيته أملت ملّة بلد عربي قريب أو بعيد ، الا أحس العراق ألمها ، ولا كانت مشكلة عربية الا جعل العراق همها .

واذا رأيتم العراق اليوم في عزلة فلأنّ نوري ولأنّ عبد ايدن^(٢) ، هما اكرهاه عليها ، وسيخرج باذن الله منها .

وارعز الملك غازي للحكومة ان تدع الشعب يعلن ما يبطنه من شعور النصر لسورية ، بل زاد على ذلك فأمر الحكومة ، فأعدت مظاهرة يقوم بها الطلاب ، فدعت طائفة من المدرسين ذوي الالسنه والعزائم ، واكثرهم من السوريين ، وكنت معهم .

ورسمنا طريق المظاهرة ، واعدناها ، وسهر الطلاب يهثون الاعلام ويكتبون عليها اصرح ما في الالة من كلمات التمجيد للجهاد المجاهدين من أهل الشام ، والغضب على عدوان المعتدين من الفرنسيين .

وأعدت الاناشيد الحماسية ، وأنا الذي لم يكن شاعراً قط ، نظم في ذلك اليوم اكثر من نشيد ، منها نشيد (يا ملك العرب غازي) الذي اشتهر وردده الالسنه زمناً .

(١) المقصود به عبد الاله .

هذا النشيد الذي نظمته وأنا غير شاعر ، وزدت فلهجته وأنا غير موسيقي ، ولكن الحماسة التي أثارها ابوك باجلالة الملك ، ان النار التي اوقدها ابوك في ضلوع العرب جعلت العمى فصيحاً ، والجبان بطلاً مقداماً ، وقامت مظاهرة ، اشهد وقد عشت في بلد المظاهرات ، وشهدت الوثبات المتصلة من سنة ١٩١٨ الى ان جلا الفرنسيون عن الشام ، ووثبة الفرح والانتفاضة خلال أيام الحكم العربي ، ووثبة الجهاد والنضال أيام الانتداب ، فما رأيت مظاهرة اكبر ، ولا يوماً اعظم من ذلك اليوم .

لا والله ، ولقد عرت عليه هذه السنون كلها ، ولا ازال كأني اعيش فيه الآن .

لم تكن مظاهرة شمسي ، ولم يعدها اول ولا آخر ، كانت تمتد من الباب الشرقي الى باب المعظم - وقد سدت الطرق ، وامتلأت بالناس ، وقام في كل مكان خطيب ، وافتن الناس في الاهازيج والمناجات والاناشيد ، وتفتحت القرائح ، وتفتقت الالسنه ، عن روائع لم يستطع مثلها الشعراء ، ولم أر يوماً مثله الا يوم مقتل غازي وربما اذعت وصفه في حديث آت .

يا جلالة الملك فيصل ، هذا يوم من ايام بغداد ، شهدته وأنا رجل كبير ، فكان له في نفسي هذا الاثر ، ولا ازال كلما ذكرته ، استمدت منه حماسة وقوة ، فكيف بأثره في نفوس الشباب .

هذا يوم من ايام بغداد . لقد كانت بغداد على عهد ابيك قلب الوحدة العربية الذي ينبض فيه دم الحياة ، ثم يخرج منه قويا نظيفاً أحمر ،

أفترضى يا مولاي ان تكون بغداد علي عهدك ، قلب الحلف
الانكليزي ؟

وكانت حكومة أبيك تدعو المدوسين ليشيروا الطلاب احتجاجاً علي
عدوان الفرنسيين علي أهل الشام ، أفترضى يا مولاي أن تكون حكومتك
هي التي تعدو علي أهل العراق ؟

ولقد هتفت بأبيك أقول : يا غازي ، يا غازي ، ادرك أهل الشام ،
فقال لي أبوك : لبيك ، لبيك . أفترضى أن اهتف بك : يا فيصل ادرك
أهل العراق ، أنقذهم من نوري ، ومن عبد ايدت ، الذي ينفق اموال
العراق ، ويسخر سلاح العراق ، ليقتل شعبك شعب العراق ،
ارضاء لعدوك وعدو العراق ، وعدو العرب ، للانكليز ،
فلا ترد ؟

يا فيصل يا ملك العراق .

إن علماء العراق في السجون ، إن في السجون الامام العلم الذي يفاخر به
هذا القرن القرون الماضية ، الشيخ امجد الزهاوي .

إن شباب العراق في القبور ، إن في القبر حفيد الإمام المجتهد الشيخ
محسن الحكيم .

ان ترى العراق مخرج بدماء ابناء العراق .

لقد نال أمة العراق من الأذى والضرر علي يد نوري ، ما لم ينلها مثله علي
أيدي الانكليز ، ولا علي أيدي المغول .

يا فيصل ، ندعوك الايامى الثاقلات .

يا فيصل ، يناديك اليتامى المظلومون .
يا فيصل ، دعوة الحق ، يا فيصل ، نداء العدل .
يا فيصل ، صرخة الوطن والعروبة والدين .
يا فيصل ، المدد المدد ، الغوث الغوث ، لا تترك شعبك يذبحه
الانكليز بأيدي زبانية نوري السعيد .
يا فيصل :

لقد كان على هذا العرش يوماً ملك نادته اسيرة من بلاد الروم ظلمها
أمروها : (وامعتصاه) فاهتز لندائها هذا العرش عرشك ، وماج لها
هذا الشعب شعبك ، وخرجت جيوش بغداد فلم ترجع إلا وفي ركابها
المجد والظفر ، أفيرضى رب هذا العرش اليوم ان تناديه الاسيرات في
بغداد فلا يجيب ، أسيرات لم يظلمهن رومي ولا بزانطي ، ولكن انكليزي
يلبس جلده عري ، يظلمهن ويذبح أبناءهن ، ويقتل رجالهن ، وهن
بصرخن ، (وافيصلاه) ، فأين انت يا فيصل ؟

أين أنت يا ابن غازي ؟ لتسمع النداء .
نداء الاسيرات في بغداد ، نداء اخواتك وخالاتك ، وأمهات
شعبك .

فقم يا أمـا المعتصم ، لا لتلبيا على الحبول البلق ، ولا بالجحفل
الجب ، بل لتلبيا بكلمة واحدة منك تقوها لهذا الظالم الفاجر .
قل له : دع الوزارة واخرج منها مذؤوماً مدحوراً .

اخرج منها فما يجوز أن يحكم رجل شعباً ، وهو يريق دماء أبناء هذا الشعب ، ويبيعه للأعداء .

لو كان الامر بقتل ابناء العراق يصدر باسم الملكة اليزابيث لكان علينا أن نقتل بأيدي عدونا ، ولكل أمة في الدنيا عدو تنال منه وينال منها ، ولكن هذا الامر يصدره باسمك الرجل الذي خانك ووالى عدوك .

فقل له الكلمة التي ننتظرها منك ، من عربتك ، من هاشميتك ، من ابن غازي ، قل له : اخرج !

قلها يا مولاي ، قبل ان يقولها الدهر بلسان البركان المتفجر^(١) .

قلها ، قبل ان تقولها الثورة ، التي تطيح بنوري ، إن الثورة لازمام لها ، فاذا لم تدفعها عنك بطرد نوري ، طرحت الثورة من العراق من هو اكبر من نوري ، كما طردت الثورة من مصر من كان اكبر رأس في مصر : فاروق .

وهذا يا مولاي نذير ، من صديق للعراق .

• • •

(١) لم يقلها فقالها الدهر بلسان ثورة قموز .

ثورة تموز في العراق

أذيعت يوم الثورة من محطتي دمشق وبغداد:

سافني القدر في مطلع شبائي الى الصحافة ، فاتخذتني الى حرفة ، وتقلت بين الصحف حتى انتهيت الى الجريدة الوطنية الكبرى (اليوم) فكنت اعمل فيها . اكتب وأصحح وأراجع .

وكنيت رئيس لجان الطلبة في دمشق ، وكنت آخر ما افكر فيه او يخطر لي على بال ان اكون موظفاً ، ولكنّ الرباح تجري بما لا تشتهي السفن .

واصبحت يوماً فاذا الجريدة قد أغلقت ، ولجان الطلبة قد حلت ، واذا أنا بلا مال ، وفي عنقي عيال ، فاضطرت الى الوظيفة ، وغدت معلماً في المدارس الابتدائية ، وكان ذلك من اكثر من ربع قرن ، وكان المستشار (راجه) هو المسيطر على المعارف ، وبيني وبينه تراث من قديم .

وكننت افوو بالحاسة واغلى من النشاط ، اكتب وأخطب وأثير.

الناس ، وكانوا يريدونني على السكون والخنوع ، فضايقوا بي وضقت بهم ،
وأذيتهم بقلمى ولساني ، وأذوني بالنقل والعقاب ، حتى اذا لم يبق للاحتلال
مجال ، وضاعت بي السبل فررت الى العراق .

واقمت في العراق سنوات اربعاً ، شهدت فيها الثورة على ياسين ، ومقتل
جعفر . ثم رأيت سقوط بكر ، ومصرع غازي . ثم ابصرت نهضة
الفتوة ، وثورة رشيد عالي ، وعهد النكسة والانتقام ، حين عاد البلاء
على أبدي من كانوا سادة لنا وهم عبيد الاجانب ، وكيف صارت
الوطنية ذنباً ، والاخلاص جريمة ، وكيف كرم الخونة وشنق
الاحرار ...

... ورجعت من العراق وقد حملت منه ألف ذكرى ، وخلّفت فيه
خمسة آلاف تلميذ ، صار منهم سبعة وزراء واربعة عشر عقيداً في الجيش ،
وصار منهم رؤساء استئناف ، واساتذة في الجامعة ، وصار منهم
شعراء وكتاب ، وتركوا في العراق قطعاً من نفسي ، وبقايا
من حياتي .

ولبثت على الوفاء للعراق ، الذي آواني يوم ضاقت بي بلدي ، وعرف
لي قدرتي يوم بخسني من كان منا حقي ، احنّ ابدأ اليه ، واذكر
أبدأ ايامي فيه ، ما اعرف من وفي له اكثر من وفائي ، ولا من كتب
عنه من درس فيه مثلاً كتبنا نحن الثلاثة : الزيات ، وزكي مبارك ،
وانا^(١) ، وبقيت ابدأ أنني على العراق ، واذكر بالخير وبالإباء
وبالكرم اهله .

وكان يجادلني بعض من لم يعرف العراق من اخواننا ، ويقول : أما

(١) ولا اعرف من الشعراء من نظم فيه مثلاً نظم انور المطار .

توى العراق ، قد استخذى ولان ، حتى وبطوه بجبل الحلف ، ثم خضع
وخضع ، حتى جرته به الى نصر العدو وحرب الأخ ، شيخ السوء نوري ،
وفى الشر عبد الآله ؟

فأقول : انتظروا .

ان العراق ينام ولكنه لا يموت ، انتظروا ؛ تروا كيف يفيق
الاسد ، فيقطع هذه الحيطان التي قيده بها هؤلاء الصبيان ...

وانتظروا ؛ وانتظرت ؛ فما تحرك العراق ولا أفاق .

وناديت فيصل من هذا المذبح^(١) ، يا فيصل انفذ العراق من عدو
العراق . يا فيصل احم نفسك من قتل أباك . يا فيصل . يا فيصل . فما
رد فيصل ، ولا حركته تلك الصيحة التي تحرك الصخر ، وما كانت بملك
حركة ولا ردا .

وهتفت بشعب العراق ، وذكّرت به بطولانه وأجاده ، واعدت
عليه ذكر أيامه ، ومثل أيام العراق لا ينسى ، فما سمع ولا
استجاب .

وترك هؤلاء النفر من الحوارج ، يحولون أسدأ في طرق بغداد ،
ويتسللون كلاباً في شوارع لندن ، حتى قطعوا حبل الأخوة بيننا وبين
العراق ، ليربطوه بذنب الانكليز .

فتفرق الشمل الجميع ، وتعادى الاشقاء المتعابرون ، ومشينا نحن في

(١) أثبتت هذه المقالة في هذا الكتاب للذكرى والتاريخ .

طريق ، ومشى العراق في طريق ، بعدما كان الطريق واحداً ، والغاية واحدة ، وكتب على اذاعة بغداد ، بغداد العربية ، بلد الرشيد والمأمون ، ان تحمل قسطاً من عبء اسرائيل ، فتعاونها على سبنا وشتمنا ، والافتراء علينا .

وصار العراق (الرسمي) يعادي الوحدة ، ولقد كان العراق أول من هتف للوحدة وتحمس لها ، وجعلها درساً في المدارس ، وكان من اكبر أمانيّ تلاميذنا في بغداد ، اذا قرؤوا قصة الوحدة الايطالية ، والوحدة الالمانية ، أن يكون العراق (بيه مونت) أو (بروسيا) ، فيحقق الوحدة بيديه معاً ، يد الشعب بعواطفه ورغباته ، ويد الحكومة بسياستها وسلاحها ، فكيف تبدلت الحال حتى صار ذنبنا ، عند حكام العراق ، اننا خطونا الخطوة الاولى في طريق الوحدة ؟

وكننت أعد نفسي من أهل العراق ، لاني اكلت خبز العراق ، ورأيت خير العراق ، واتخذته بلدي بعد بلدي ، فما كاث بعد دمشق مدينة أحب اليّ من بغداد ، ولا كان بعد العتبا نغم احلى في أذني من الايودية ، ولا كان بعد بردى خير أجمل في عيني من دجلة ، ولا بعد الحور شجر أمتع لبصري من النخيل ، ولا كان بعد الصفيحة في أصباح الربوة أكلة أشهى اليّ من السك المسقوف في أمامي الشط في بغداد .

ما اضمرت لبغداد غير الحب ، ولا أكننت لأهلها إلا الوفاء .

فكان جزائي من حكام بغداد ان منعت من دخول العراق سنة ١٩٥٤ ، ولم أدخله إلا بشفاعة رجال في بغداد ، من رجال العلم والادب ،

لا يستطيع أحد من الحاكمن ان يرد لهم شفاعة .

ومنعت كرة أخرى سنة ١٩٥٧ ، وما كان ذلك لاني كنت ضالماً مع المعارضين ، ولا لاني كنت خصماً في السياسة للحاكمين ، فما لي في السياسة ناقة ولا جمل ، ولقد كنت في العراق (كما أنا الآن في الشام) أعيش مهتزلاً لا احضر حفلة قط ، ولا ادخل حزباً ولا هيئة ، ولا امشي الى هناء ولا عزاء ، ولا استقبال ولا وداع ، ولا ازور إلا نفراً تجمعهم في العدا الاصابع ، بل لقد منعت اول مرة ، لاني كتبت أقول ان النظام الملكي ليس من الاسلام ، وان الحكم في الاسلام ليس للأسرة بذاتها ، ولا لبيت بعينه ، وان الرئاسة لا تكون إلا بالشورى ولا تتم إلا بالبيعة . ومنعت بعدُ لاني كنت أول من أعلن قصة مصرع غازي ، وأنه لم يمت ولكن قتله الشقي غير السعيد نوري ، وابن عمه عبد الإله ، منعت من دخول بغداد وأنا أعد بغداد بلدي ؟

وأوذني فيها اخواني من أبناء مصر والشام ، وما في الشام ومصر إلا من يرحب بالعراقي ان رأوه عندهم ويفتح له قلبه وداره ؟ تفرق الشمل الجميع ، ونعادي الاخوة المتحابون ، فكيف تبدلت الحال ؟

أي عين أصابت العرب في إخائهم واتفاقهم حتى ردتهم أعداء مختلفين ؟ وماذا أقول لمن يلومني في الدفاع عن العراق وأبناء العراق ؟ لقد عاد اللائثون يقولون وأنا لا أجد في الدفاع عن العراق كلمة أقولها .

ماذا دعى العراق ؟

وكيف يقيم على المذلة والضمير ؟

كيف يدع نفرأ من عبيد الانكليز يقيدون ويسوقونه ليكون يوم
الروع الفداء للانكليز ؟ كيف ؟ كيف يا ناس ؟

أترون العراق قد خلا من الاحرار ؟

أيجلو من الأسد العربى ؟

أم لقد أخاف العراق ، أن الطفاعة نشروا الجواسيس في الناس
حتى لا يأمن المرء جاره في الحارة ، ولا تلميذه في الصف ، ولا زميله
في الديوان .

لأن الطفاعة جعلوا الجار جاسوساً على جاره ، والتلميذ جاسوساً على
أستاذه ، والزميل جاسوساً على زميله ، واستعملوا لذلك الرجال
والنساء والاولاد ؟

وانهم يأخذون الناس من بيوتهم ، سرقة وغدراً ، بلا محاكمة ولا
ذنب ، الى حيث لا يدري احد ؟

وانهم كوا الأفواه ، وقيدوا الاقلام ، وعدوا على الناس الالفاظ ،
وأحصوا عليهم الأنفاس ؟

كيف خاف العراق ، وعهدى بمن في العراق أنهم لا يخافون ؟

وانتظرت الوثبة حتى اذا طال الانتظار ، ولم أجد شيئاً ، يشست
أو كدت ، وأرشكت أن أكفر بالعراق ، وشعب العراق .

حتى كان يوم الاثنين الماضي ، فرق الهاتف في ساعة ما ألفت أن يكلمني فيها أحد ، ففقت مذعوراً .

وقلت : من هذا السمج الغليظ الذي يزعمني عن منامي ؟
وفتحت فإذا أنا بقاتل يلقي اليّ كلمة واحدة ويضع الساعة . قال :
(افتح رادّ بغداد فوراً) .

قلت : قبحه الله ، وقبح رادّ بغداد ؟
ما لي لرادّ بغداد أما سمعته البارحة وهو يذيع في آخر الأخبار ،
نبأ سفر النفر الاشرار الى اسطنبول ؟
أعنده أسوأ من هذا الخبر ليتحفنا به من الصباح ، أم هي سلسلة جديدة
من الشتائم والأكاذيب .

وفتحت كارهة فسمعت كلمة أطارت النوم من عينيّ ، وجعلتني
أفرك أذني .

ماذا أسمع ؟ أنا لا أزال نائمًا ، وهذه بقية حلم من الأحلام ، أم
أنا في يقظة ؟ ماذا أسمع : (إذاعة الجمهورية العراقية) ؟
وعدت أتأمل موضع الابرة التي غلطت ، أو لعلها محطة سرية ،
ولكنني لم أغلط ، وليست محطة سرية ، إنما محطة بغداد !
الجمهورية ، أي جمهورية ؟

ماذا وقع بين عشية وصباحها .
أزالت الملكية من العراق ؟ أو ثب الشعب ؟ أمن نصف الليل

الى مطلع الشمس ، يتبدل كل شيء ، وينهار العرش ، وتقوم
الجمهورية ؟

ولم أدر ماذا أفعل ، وأحسست أنني أشتبي أن أصرخ أو أن
أقفز ، أنني أريد أن أوقف الناس كلهم لأزف إليهم البشرى ، ولكفي
ثبث وقلت :

يا ولد انتظر ، لعلها مزحة أو لعلّ مديحاً انطلقت الحماسة لسانه بها
فقبض عليه ، ولبتت أسمع فلا أجد إلا ما يؤكد الخبر ، أنه
الانقلاب .

وكانت فرحة للناس جميعاً ، وكنت أحق بها لاني واحد من
أهل العراق .

لقد حسبنا أننا خسرنا العراق ، فردّه علينا هؤلاء النفوس الأبية
الاحرار .

فيا أيها السادة الاحرار ، لكم الشكر ، لكم الشكر لانكم رددتم
عليّ بلدي الثاني ، وجعلتموني أرفع رأسي بعودة الاتحاد بعد ان اضناه
طول الانقسام ، لقد اعدتم لي ثقتي بالعراق وشعب العراق .

انها امة واحدة ، نص الله على وحدتها ، على لسان جبريل فلن تزيلها قوة
بشر ، ولن تهدمها ألوان على المصور ، ولا خشبات عند الحدود .

لقد عدنا امة واحدة ، فـ (الحمد لله) !

★ ★ ★

صورة سوداء من بغداد

نشرت في بغداد سنة ١٩٣٧

كنت نازلاً اليوم من الأعظمية الى بغداد ، في سيارة من هذه السيارات التي يدعونها (الباص) ، وكنت الى جانبي رجل مسلم على رأسه عمامة بلدية^(١) . ويبدو عليه انه تعدى الاربعين ، وبلغ من العقل والرشد ، فسرتني جواره . وهممت بان أفتح معه باباً للحديث ، نركب به الطريق ، فلم اكذ افعل .. حتى رأيت به يخرج علبة دخائنه (سيكاراته) ويشعل دخيلته وينطلق الوقح قليل الحياء يدخن علناً .

لا يستحي من الله ان يراه على شيبته مفطراً في رمضان ، ولا ينجل من الناس أن يروه عاصياً فاجراً ...

فيحولت وجهي فاذا أنا بأخر يدخن في الطريق ، واذا هنالك ثالث في القهوة ، ورابع وخامس وسادس . . وما شئت من آكلين وشاوبين ومدخنين ، فذهبت الى المدرسة فاذا غرفة المدرسين ، كأنها قاعة تدخين ، وكدت اقول ، كأنها (محششة) ، واذا اخواننا المدرسون

(١) يشماغ .

المسلمون ، بدخنوا لا دين ولا مجاملة ولا قوة ارادة ... ولا شيء في الدنيا
اسمه الحياء .

واذا المجاهرة بالعصيان سنة متبعة و (موضة) شائعة ، واذا
اكثر الشبان ، أعني من عرفت منهم ، لم يدوسوا الاسلام ، وما لهم به
صلة وثيقة ، بل انهم ليقربون من الالحاد ، ويجذونه ، ويتمنون لو سار
العراق على هذه الطريق العوجاء التي سار عليها جيرانه الاتراك ، والتي
تؤدي به الى الهاوية .. لما وضع في نفوسهم المدرسون ، الذين تخرج
اكثرهم في الكلية الاميركية ، من بغض الدين ، والزهد فيه ، وما يشبه
ذلك من المبادئ الخبيثة التي أنشئت لأجلها هذه الكلية وسائر المدارس
الاجنبية ، بلا استثناء^(١) !

ولذا هناك داء دوي فتاك ، اذا لم تنتبه له البقية الباقية من علماء
المسلمين ، الذين يعرفون الاسلام ويغارون عليه ويعلمون أن الامر
بالمعروف والنهي عن المنكر فرض من فروض الدين ، وأصل من أصوله ،
وان المسلمين آمنون اذا هم تخلوا عنه جميعاً ، ولم تكن منهم أمة يأمرون
بالمعروف وينهون عن المنكر - أقول : اذا لم ينتبه هؤلاء الى هذه الحالة ،
ويعالجوها بالحكمة وبالموعظة الحسنة ، وبالردع وبالجزم ، اوشك
ان يمضي الوقت ، ويمشي هؤلاء المسلمون الباقون في طريقهم ، ولا يبقى
في العراق عالم ، فينصب الناس علماء جهالاً ، فيفتنون بغير علم ، فيضلون
ويضلون ...

(١) يجب على كل شاب مسلم ان يقرأ كتاب (التبشير والاستعمار) .

وأحسب الوقت كاد يمضي ، واطن ان الظفر قد تم في العراق لهذه الفتنة الملعونة الرعناء^(١) . وإلا فما بالنا نقرأ في صدر جريدة من اكبر جرائد العراق ، مقالات حشوها الطيش والسخف والكذب والمراء ، مقالات كتبها صاحبها لا برأسه ويده ، بل فكر فيها بانقه وكتبها بخصر رجله ، يدعو فيها الى الحياة التي يريدونها ... وما هذه الحياة علماً ولا مجداً ولا صناعة ، فما يبالي بشيء من هذا ، ولا يفهمه ولا يصل اليه ادراكه ، ولكن هذه الحياة ... انشاء المراقص والحارات ، وفتح المواخير في المنازل والاوليات ، ولبس القبعات ، وما الى هذا ، بما يعرفه اهل هذا الفن الداعر الموسى ... الحيث !

وإلا فما هؤلاء المفطرين ، لا يجدون من يقول لهم كلمة ، او يمنهم ، وما لهم - خيب الله آمالهم ، وأدنى آجالهم - جاحون في طريقهم ، فعل الدابة الحرون لا رادع ولا مانع ؟

وهل من العلم والحضارة ان يتجرد المرء من دينه ، ويركب سبيل الشهوات ، ويتخطى حدود الشرف والاخلاق . اذا كانت هذه هي الحضارة ، وكان هذا هو العلم ، فلعنة الله عليهما وعلى من يدعو اليهما .

اننا قوم لهم دين ، ولهم كتاب ، اتبعه اجدادهم ، فنجحوا وأفلحوا ، وملكوا زمام الكون ، ولا سبيل لنا الى الفلاح إلا باتباع الدين ، وهؤلاء

(١) نشأ في العراق اليوم من ناشئة الشباب قوم أعز الله بهم دينه ، ونصر شريعته ، وأعلى كلمته ، وهذه علامة من العلامات ، على ان يحفظ هذا الدين ، وانذ العاقبة للمتقين .

الذين يقولون باللاييك ، وينكرون جامعة الدين ، يتكلمون بما لا يفهمون ، ويرفون بما لا يعرفون ، لانهم لم يدروا الدين ، ولم يطلعوا على أسسه وأحكامه ، ولم يدروا ما هو ، وإنما يتكلمون على الظن ، كمن يشهد بالله ان فلاناً لص سارق ، او كاذب محتمل ، وهو لم يعرف هذا (الفلانت) ولم يلقه ، ولم يربطه به سبب من الأسباب ، أو يتكلم عن مدينة من المدن ويصف شوارعها وسوقها ، وهو لم يرها ، ولم يقرأ عنها ، ولم ينظر مصورها ، ولا سمع خبرها ، فلا يغترون أحداً بما يقول هؤلاء ، فما لكلامهم قيمة إلا إذا درسوا وبجثوا وتكلموا عن فهم ... وإلا فهم أهون من أن يصفى إليهم .

وانظروا بالله يا أيها المنصفون ... هذا الصيام ، أمر به الله تعالى ورسوله ﷺ ، وكتب العلماء في أحكامه ومزاياه وفوائده ، مئات بل ألوفاً من الصحف نشرت في الشرق والغرب ، في القديم والحديث ، فيأتي شاب احمق غرّ جاهل ، فلا ينظر فيما قالوا ولا ما كتبوا ، ثم يأخذ لنفسه الحق في ان ينكر فائدة الصيام ، ويرد على الله ورسوله والائمة والعالمين من غير بحث ولا فهم ولا هدى ولا صراط مستقيم ؟

فأي فائدة وأي قيمة لهذا المقال ؟

ومثل الصيام الصلاة وسائر أحكام الدين . فاما أن يبين لنا هؤلاء المجددون ، أو المجدرون ، على حد تعبير الكاتب الكبير محب الدين الخطيب - بالبحث الصحيح ، والحجة الدامغة ، ان أوامر الدين ، من صلاة وصيام وحج . ونواهيه من ردع عن الكذب والحياة والزنا واللواط ، اما أن يبينوا أنها شر وضرر ، وان ترك الصلاة والصيام والحج خير ، او

أب الكذب والزنا والسرقة هي الخير والفائدة ، وأما أن يعترفوا بانها خير ونفع ، ولكنهم قوم كسالى أو مقصرون أو انهم يحبون الشر ، وأما أن يتبعوا سبيل الدين ، ويكونوا مسلمين صادقين ، لا مسلمين جغرافيين .

إن هؤلاء المجددين ليسوا إلا مقلدين بلا بصيرة ولا اطلاع ، مقلدين للفرنجة ، واني أنا فاش كثيرين منهم فألعب بهم وأسخر منهم ، اعمد الى اللفظة أو الحكمة من حكم علمائنا فأقولها لهم وأنسبها الى صاحبها العالم المسلم ، فيمزجون ويضحكون ، كأني قلت لهم نكتة من نكات جيجا ، فأخذ اللفظة مثلها في معناها او التي أهل منها ، لعظيم من عظماء الغرب ، فيطأطئون الرؤوس ، ويسمعون ويعجبون .

لا يفرقون بين حق وباطل ، ولا يعرفون الحسن من السيئ . ولكن يعرفون ان هذا غربي فهو حسن ، ولو كان الرقص والزنا والشيوعية والاباحية والانتحار ، والموت الاحمر ، والبلاء الازرق ، والعيش الاسود ... وان هذا شرقي ، او على الاصح اسلامي فهو قبيح ولو كان الصلاة والصوم والصدق والمروءة والمجد والعلم والحياة .

وأنا لا أتمنى شيئاً ما أتمنى أب أبجد ملحداً واحداً ، أو مجدداً يستطيع أن يناقش بالحجة والبرهان ، ويعرف شيئاً غير الهزء والسخرية والكلام الفارغ ، والتقليد الاعور ، ولكني لم أجد الى اليوم إلا ببغاوات تعيد منطق اوربا العقيم .

أقول العقيم ، لان العلماء من أهل اوربا لا يزالون يخبر ، ولا يزالون صادقين مخلصين ، ما بحثوا عن غير الاسلام ، فاب بحثوا عن

الاسلام ، فانما هو الخاط والكذب ونحكي الهوى لا العقل ، والمصلحة
لا الحقيقة ، يضمنون لنا الديناميت ، ثم يأتي هؤلاء المغفلون ، فيقولون ،
هاكم هذه الاحجار ابنوا بها صرح حياتكم .

ان هذه ديناميت يا مجانين !

★ ★ ★

استغفر الله فما أقول ان بغداد قد انفردت هؤلاء المجددين المقلدين
تقليد الفرد ، الذي يفخرون بان نسبتهم اليه ، كما نفخر نحن أبناء آدم
بنسبتنا الى آدم النبي الكريم . ولكن أقول : ان مثل هؤلاء موجود
(وقد رأيته) في الشام ومصر ، ورأيت في مكة والمدينة ، ولكن
في الشام ومصر جهات اسلامية قرية يقظة ساهرة ، ترد كل سهم
في كبد مرسله . في مصر الفتح وما ولد في دار الفتح ، وبسبب الفتح
من جمعيات الشبان المسلمين والهداية ، وفي الشام الجمعيات الاسلامية
الكثيرة ، المسلمون الغير ، وفيها جماعة الهداية الاسلامية قائمون بالمرصاد
لكل من يريد بالاسلام شراً ، وفي الحجاز حكومة مسلمة تقيم
حدود الله ، وتتبع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فأين الجهات
الاسلامية في بغداد ؟

انني أسأل سؤال مستنفر لا سؤال منكر ، وقد سمعت بجمعية
الشباب المسلمين وجمعية الهداية الاسلامية ، ولكنني لم أرهما بل رأيت

الرجل الذي ملأ أنفي اليوم بدخان سيكارة ، ورأيت زملاءنا المدرسين
الذين لم يدروا أنت في الدنيا رمضان ؛ ورأيت الطلاب الذين كادوا
ينساقون مع هذا التيار الملحد ، ورأيت المساجد الخالية ، ورأيت
البدع الفاشية ؟

رأيت هذا كله ، ولم أر الجمعيات الإسلامية ؛ فأين هي ؟

أرجو ألا أعدم الجواب .

• • •

للذكرى والتاريخ

بغداد في يوم غازي

كتبت سنة ١٩٣٩

أما رثاء الفقيه ، وبيان جلال الرزء فيه ، ومبلغ الحزن عليه ،
فتلك أمور كبرت عن أن يحيط بها (نظم من الشعر أو نثر من الخطب)
وبعد منالها عن كاتب مثلي ، قصير القامة واليدن ، فليكن همي في
أن أروي (مارأيت وما سمعت) .

ولقد رأيت عجباً ، وسمعت أعجب منه ، وشاهدت أحوالاً
وبما ظها القراء الذين هم في غير بغداد مبالغه من نسج الخيال ، ولكن
الله يعلم ، وأهل بغداد يشهدون ، أن الذي أقوله حق كله ، وأني
مازدت فيه ، ولكن نقصت منه ، وأني لو ذهبت أستزيد فيه
ما استطعت ، ولا بقي للخيال بعد الذي كان مجال .

والذي رأيت أني نزلت من (الأعظمية) مبكراً على عادتي ، فلم
أر على الطريق ما انكر ، إلا حركة عند (البلاط) ما لقيت لها

بالا ، حتى إذا شاورفت المدرسة (ومدرستنا في ظاهر بغداد ، قريبة من باب المعظم) رأيت طائفة من الطلاب مجتمعين ، يتهامسون ، ولكن الوجوه غير الوجوه ، فلما أبصروني أسرعوا إليّ يسألونني عن (الحادثة) ؟

فقلت وأنا خالي البال : أي حادثة ؟ اني ما سمعت بعد بشيء !

قالوا : لقد ساع في البلد أن الملك ...

فاضطربت وتوقعت أن اسمع عنه نبأ لا يسر ، ولقد أحببت الملك غازياً منذ شهور^(١) خلت ، حباً شديداً ، لم أكن أحبه من قبل مثله ، وصرت أرى فيه معقد الأمل ، وباب الرجاء .

فلما قال التلميذ ما قال ، خفق قلبي ، من توقع المكروه ، وحب الاستطلاع ، وروعة المفاجأة ، وما يصيب المرء في العادة في موقف مثل هذا ، وصحت بالولد أسأله أن ، ما للملك ؟

وبالغت في الصياح حتى روعته ، وأثرت أحزانه ، فقال متمثراً بحرف الحروف من فيه جرأ :

- يقولون : انه ... قدمات !

فقلت : أعوذ بالله . اسكت وبجك ، ان هذا كذب فلا تنطق به ...

(١) صنع غازي قبل موته ما ادخل محبته على كل قلب ، وجعله صديقاً لكل عربي .

وأمرعت الى المدرسة والطلاب معي ، وأنا أرجو وهم يرجون أن يكون الخبر كذبا .

ولبت بعض الطلاب قائمين على الطريق ، ينتظرون مرور الملك كما يمر كل يوم ... فلما بلغنا المدرسة ، وجدنا كل من كان فيها من مدرسين وطلاب ، قد سمعوا الذي سمعنا ، وهم بين مصدق ومكذب .

ومرت ساعة ، ونحن على هذه الحال من القلق ، نسأل كل آت فلا نلقى عنده جواباً ، ونستخير الهاقن (التلفون) فلا نسمع خبراً ، ثم أبصرنا علم الشكنة العسكرية التي أمامنا قد نكس ، وجاءنا الأمر بتنكيس العلم ، وجمع الطلاب في غداة الغد للتشيع ..

فعلنا أن الناعي قد صدق ، وأن الأمل قد خاب !

. . .

وخرج المدير ، وهو الرجل القوي ، المكتمل الرجولة ، يعلن الأمر فما قالك نفسه أن بكى ، وهو ينمي لشباب (الغريبة المتوسطة) سيد شباب العرب ، وما أمسك الطلاب أنفسهم أن يصيحوا (وهم ثمانية شاب يعدون مثال النظام) صيحة واحدة ، وإن يبكوا بنحيب وعويل ، وأن يمزق بعضهم ثيابه ، وإن يغى على بعض . وما أكرم القاريء اني حسبت ذلك دياء وتصنعاً ، وكرهته أول الأمر ، واشتأزت منه نفسي ، ولكنني ما لبثت ان أيقنت انه حق وصدق ، وإن منشأه هذا الحب العجيب الذي غا في قلوبهم من شهو فقط للملك الجندي ، وهذا الحزن الطاعني على وفاته الفاجعة ...

وخرج الطلاب بعد ذلك ، وخرجت على الأثر ، فما دنوت
من (باب المعظم) ، حتى سمعت نواح النساء ونحيبين ، ورأيت
الميدان كله ممتلئاً بالناس ، يتدافعون ويستبقون البلاط ، باكين
مفجوعين .

مشهد للحزن ما أحسب ان اروع منه يكون ، فضالفت الجماهير ،
وقصدت شارع الرشيد ، فلم ابلغ (الصابونية) حتى رأيت مئات من النساء
تحكي ثيابهن ومظاهرهن الغنى والحشمة ، وهي ينشدن شعراً عامياً ، او
شبه شعر ، ما فهمته ولكنني تبينت فيه ذكر غازي ، وشبابه الغض ،
وذكر الموت .. وكلما قلن بيتاً لطمن وجوههن ، وبكين بحرقة وألم
فما رأيت أحداً إلا يبكي أشد بكاء ..

ورأيت من بعد آلافاً من الناس ، قد حملوا شاعراً عامياً ، فهو
يقرأ لهم شعراً كله تفعيع وألم ، وهم يلطمون ويضربون صدورهم ، أو
يشيرون باللطم . فلم أطق المسير ، ولا الشهود ، فملت الى (الثانوية)
وكانت خالية مقفرة ، وعلى بابها علمان متشحان بالسواد ، فغادرتها
أفتش عن أخي أنور العطار فما هي حتى جمعتني الله به ، فقلت له :

ان المسير في شارع الرشيد مستحيل ، والصبر على رؤية هذه المراكب
الباكية أشد استعالة ، وحسبنا ما في نفوسنا من الألم ، فلم بنا
الى الدار (في الكرخ) فانها أهدأ ، ورأى ما رأيت فسرفاً
نؤم الجسر .

وكان اليوم عاصفاً خفيفاً ، والنهر مضطرباً مرعباً ، كأن الطبيعة

قد دوعها من النبا ماروعنا ، ففقدت هي الاخرى اتزانها وهدوءها ،
فما ظننا والله إلا انه الجسر منقطع بنا ، لما رأينا من اضطرابه
واهتزازه ، ولعب الرياح والمياه بالعوامات التي يقوم عليها ، ولكن الله سلم ،
فبلغنا الكرخ .

وإذا بالكرخ قد نشرت فيه الاعلام ، أعلام (السبابة) السود ،
ودقت طبول المآثم ، وخرج أهلوها على بكرة أبيهم ، مواكب ،
مواكب :

النساء ينحن ويلطمن الوجوه ، والرجال ينشدون ويضربون
الصدور ، وقد تعرفوا وتكشفوا فعل المتهيب للصراع ، حتى رأيت
الصدور وهي من الاحرار كأنها هي دامية . والاطفال ، بالله
ما فعل الاطفال .

لقد تعرفوا مثل الرجال ، وطفقوا يضربون صدوراً ، علم الله انها
ما تحمل الضرب ولا تطيقه ...

وكانت المواكب في كل شارع وفي كل زقاق ، فكلمنا تركنا واحداً
منها اصطدمننا بآخر ، حتى أزمعنا آخر الامر ان نعود الى جانب الرصافة
من الجسر الآخر ، فما بلغناها حتى رأينا فيها ما أنسانا فعل اهل
لكرخ ، وكان كل موكب يحمل صورة الملك الشاب مجللة بالسواد ،
رينشد أشعاراً لم أحفظها ، ولكفي فهت منها كثيراً ، فما فهت
مقالة قوم :

الله اكبر ، يا عرب ، غازي انقلد من داره
واهتزت اركان السما ، من صدمة السياره

وقول قوم ما معناه :
قولوا لفصل في اللبر يستقبل وليده
في اشعار هذا سيلها .

ولعل القراء لا يدركون قوتها ورزما لاني لم أحسن كتابتها ونقلها ،
ولكنهم لو سمعوها من أفواه أصحابها ، ورأوا بكاهم ، وشاهدوا صدورهم
المحيرة ، لعرفوا أي شيء هي ، ولعلموا أن بغداد تعرف كيف تفرح ،
وكيف تغضب ، وكيف تحزن !

ومن أعجب ما شاهدت فتيات المدارس . وهن بلطمن وجوهاً يؤفها
المس ، ويدمعا النسيم ، لا يشفقن على أنفسهن ، ولا يفتأن ما سرن
يَبْكِين وَيُبْكِين . وباليتمني فهمت ما كن يقلن فانه أشجى وأعجب بما
كان الرجال يقولون ..

وبقيت المدينة على هذه الحال الى صباح اليوم التالي ، الى مساء التشيع
التي اعلن العجز عن وصفها .

فلما تم الدفن ، وأودع الثرى الملك الشاب ، الذي كان يفيض قوة
وحياة ، وسحوت الطيارات الوطنية تحمل شارات الحزب السود
الطوال ، وانطلقت المدافع تعلن انتهاء الدفن ، وأيقن الناس ان
المصيبة قد تمت ، وأن الرجاء قد امحى ، أفافروا كمن يفيق من نومة

مزعجة رأى فيها الحلم المروع ، فيرى الواقع أشد روعة ، فأسلموا الأمر
إلى الله ، وصمتت هذه اللسنة التي طالما أنشدت ورثت وتفجعت ،
وجفت هذه الدموع التي طالما جرت وذرفت ، وانفضت هذه الجموع
واجمة ما فيها من يتكلم أو يتبس ، وفي القلوب نيران تتأجج ، وبين الأضالع
الليب يستمر .

ولم تسكت آخر طلقة من طلقات المدافع التسع والتسعين حتى عم
المدينة صمت عميق ، وغدت كأنها قبر واحد ، هو قبر غازي .

★ ★ ★

للذكرى والتاريخ

يا غازي ... عليك رحمة الله !

أذبت من محطة الاذاعة العراقية يوم مات غازي

عليك رحمة الله (يا غازي) الحبيب^(١) .

يا فخر الشباب ، يا من لم يتمتع بالشباب !

يا سيد العرب ، يا من روع فقده العرب .

يا بدر العراق الآفل ، يا أمل الشام الذاهب ، يا دنيا من

الفتوة والبطولة والنبيل ، طوتها كف الموت (يا غازي) عليك

رحمة الله !

بالأمس استصرختك وأنت أملنا وملاذنا ، وأنت عوننا على الدهر

الظالم ، والعدو الغاشم ، أفأقوم اليوم لأرثيك يا أملنا وبأملنا ؟

أقف على قبرك الطري مودعاً باكياً ، وقد كنت أقف على بابك

العالي مستغيثاً ومستصرخاً !

قد يظن بعض القراء الآن اني كنت من اشباع غازي ، او كنت لي به صلة ، ولا والله ما كان لي به او بغيره اتصال ، وما رثيته هذا الزمان ، الا لانه صنع قبل ان يموت ما جعله صديق كل محب للعرب وكل عدو للانكاذب .

أخاطبك اليوم من وراء القبر وقد كنت بالأمس ملء الكون حياة
رقرة وشبابا ؟

ليتني ما عشت حتى أرى هذا اليوم !
ليت يدي ما طاولعتني حتى أكتب هذا المقال !
ليتني ما بقيت حتى أرتبك يا غازي !
(يا غازي) جل المصاب وما لنا فيه يدان .
(يا غازي) عظم الخطب وضائق الحيلة .
(يا غازي) لو كان يفتدى ميت لفداك العرب بأنفسهم !
(يا غازي) قد فقدناك فعليك رحمة الله !
على شبابك الكامل ، على بطولتك النادرة ، على أيامك الحلوة ،
على ذكرياتك الخالدة ، على روحك (يا غازي) رحمة الله !

. . .

أفي عشرة أيام يدور الفلك ، وتتبدل الدنيا ، ويستحيل عيد مولد
الملك الشاب الحبيب ، الى مأتم الملك الشاب الحبيب ؟

أفي عشرة أيام تمر دنيا كاملة ، تبدأ بأعظم عيد عرفه هذا الشعب
هو عيد ميلاد (غازي) ، ونختم بأجل مصاب وآه ، وهو
المصاب (بغازي) ؟

من كان يظن وهو يشهد أفراح هذا الشعب في (٢١ آذار)
يوم الربيع الطلق ، ويوم (غازي) الذي كان أمرع من الربيع

وأبى ، أن الفجعة الكبرى كامنة في الغد القريب ، وأن هذا الشعب
سيلطم وجهه ، ويمزق ثوبه حزناً على (غازي) ؟

أحسست بالغد القريب فذهبت تستعجل القدر انتهىء لأمتك كل شيء
قبل أن تقضي ، فعرضت جيشك يوم الثلاثاء لتؤكد لها القوة والأيدي ،
وفتحت السدة يوم الأربعاء لتضمن لها الحضارة والخصب ، وعطفت
على آلام سوربة لنشء لها الوحدة والعزة ، وأجريت الحيل يوم الجمعة
لتعلم وليدك الصغير كيف يكون فارساً قبل أوانه ، كأنك شعرت أنا
سنفجع فيك قبل الاوان ؟

لقد كنت قريباً منك يوم (عرض الحيل) ، فرأيت في
عينيك وأنت تراقب ابنك ، معنى من معاني الغيب ، ولكني
ما أدركته .

ومن أين يحظر على بالي أنك كنت تودعه وتفكر فيه كيف يفقد أباه
ويمجد الملك ، فلا يدري ما الملك ولا بني يتنادي : بابا ... ؟

من كان يظن أن الملك الشاب ابن الحسن والعشرين يموت ؟

من كان يظن أن هذه الهبة الكبرى إنما هي استعجال للقدر ،
وأن هذه الأيام العشرة إنما هي الحاققة البارعة لتلك الحياة
البليغة ... ؟

ولكن هل تم كل شيء حتى تستريح (يا غازي) ؟

لقد وعدت (وفد العروة) أن تشرفهم بلقائك وما عهدت أن أخلف
اليوم وعداً .

لقد كمن الجسر العظيم الذي لم ينشأ مثله في عهد الرشيد والمأمون ، فأين
أنت لتفتحه بيدك وتخطو فيه أول خطوة ؟

لقد وصل الخط الحديدي الى الموصل أفلا تفضلت فرعته
وافتتحته ؟

لقد أجمعت أمة الشام على نصبك ملكاً ، وتسليك عرش أبيك
على رغم الظالمين ، فأين أنت لتسكن قصر أبيك في دمشق وتحتل
عرشه فيها ؟

لقد نهى العرب ليمشوا تحت لوائك الى قم المجد وذرى العظمة ،
فتقدم باقائد العرب يا ملك ؟

وأين قائد العرب ؟ أين الملك ؟

لقد مشى الى رحمة الله . فلنا لله وإنا اليه راجعون !

. . .

أحين امتدت المعضلة ، واستحكم الأمر ، ورجوناك للخطب لا يرجى
فيه إلا أنت .. ؟

أحين تعلقت بك الآمال ، وأقبلت عليك القلوب ، وغدوت حبيب
الشعب المفقدي .. ؟

أحين تمت بك الافراح ، وكادت تتحقق بك المنى .. ؟

الهم لا اعتراض ...

اللهم اللد حرمت كل شئخ منا ابنه ، وكل فنى أخاه ، وكل صبي أباه ،
حين أخذت سيدنا وحبينا وملكنا غازي !
اللهم فارزقنا الصبر ، وأين منا الصبر ؟

. . .

(يا غازي) ارفع رأسك ساعة وانظر الى شعبك .
لأنه يحار ساءا يصنع ، فهو يسكت واجماً ، ثم يثور نادباً ، ثم
يستفزه الالم ، فيقرع الطبول ، ويرقص رقصة اليأس .
لأنه يحمل صورتك مجللة بالسواد فلا يراها أحد حتى يبكي ، على أنهم
حملوا صورتك في الافئدة ، ونقشوها على صفحات النفوس ، فأنت من كل
قلب حبه ، ومن كل عين سوادها
اسمك آتمة على كل لسان ، ودمعة في كل مقلة ، وخفقة في كل فؤاد ،
ومناحة في كل بيت عربي .
فيا غازي ، عليك رحمة الله !

. . .

يا غازي ! لقد لحقني اليوم طفل ما أحسبه بلغ الرابعة ، فبجعل يطلب
مني بلحاح ويشير بيديه ، فأعطيته فلسين فألقاهما في وجهي ، فزدهما
فروسي الاربعة ، فتفهمت قصده ، فإذا هو يطلب شارة سوداء ، كالتي

أضعها في صدري ، ليعلن بها الحزن عليك ، فدفعتها إليه وهو يذكر
اسمك ويبكي !

لقد رأيت مجوزاً تنظر الى رسمك المجلد بالسواد وتبكي ،
كأنما تبكي فيك ولدك الوحيد ، وهي تظن أنه ما يراها من
أحد إلا الله !

لقد أغمى على كثير من الطلاب والطالبات ، لما استطع عليهم
الخبير الاسود .

لقد احمرت من الظم صدور وخذود ، يؤذيها من النسيم !
يا غازي ، يا أيها الفتي القوي ، يا أيها الفارس الطيار ، ألم تعد تستطيع
أن ترفع رأسك مرة أخرى ، لتري ما صنع شعبك ؟

لقد متّ من القضاء مرة ، ولكننا متنا من الحزن ألف
مرة ، وسنموت من الحزن ألف مرة ، ولن ننساك (يا غازي) ،
مثلك ما ينسى !

. . .

الذي نادى بك ملكاً منذ أيام ، وكنت أفت أمله لم يبق
بك فيك اليوم كل شهيد من شهدائه . إنه كان يحبس
فلمن يحبس الدمع من بعدك ؟

التي كانت تتلقى ابنها القليل وهي تهتف باسمك ،

الى قطعة نشرتها في جريدة البلاد قبل ذلك بأيام استقيت فيها ، فكان جواب
ة تنصر فيها للشام ما رأى الراي مثلها !

لم يبق لها من تهتف باسمه من بعدك !

(يا غازي) من لاطفال الشام ، من لنسائه ؟

من لضعافه الذين يسومهم القوي ألوان الحنف ؟

(يا غازي) من لهم ، وباسم من يتفون من بعدك ؟

(يا غازي) ما تيم لفقدك فيصل الصغير وحده ولكن فقدك يتم

كل عربي .

ما تيم فيصل الصغير أبداً ، ما تيم ، إن كل عربي له أب وصديق ،

إن له في قلب كل عربي مكاناً !

أسقيقه أنهم أودعوك تحت الثرى ؟

(يا غازي) إني والله ما أصدق أنك مت !

(يا غازي) لقد سمعت الخبر فكذبته ، ولعنت نافله وانتظرت أن

أراك طالماً علينا ، تمرّ مرّ النسيم الناعش ، مرّ الرجاء الخلو بخيال

الآيس الحزين ، تحيي شعبك ، وتسبغ عليه القوة والحياة بابتسامتك

المنيرة وفتوتك الباسلة .

وظفقت أراقب الساعة أحسب الوقت فلم تمر ، فشككت ولكني لم

أصدق ما قال المرجفون .

ورأيت النساء يبكين ويندين ، فبكيت والله ، ولكني لم أصدق

ما قال المرجفون .

وشاهدت بغداد وملء شوارعها البكاء والحسرة والندب ، ولبثت

أشك ولبثت أرجو ، حتى سمعت المدافع ووعيت الصيحة ، فلم يبق شك
ولم يبق رجاء .

لقد تحقق النبأ فواحسرتاه ... لن نراك (يا غازي) طالماً علينا .
لن نبصر من بعد موكبك ولا ابتسامتك ولا نحيبتك ، فيا غازي في
ذمة الله وأمانه ، يا غازي عليك رحمة الله !

. . .

يا أهل بغداد !
مات غازي فابكوا واندبوا ، فعلى مثل غازي يحلو الندب
والبكاء .

يا أهل بغداد !
ما فجعتم فيه وحدكم ، ولكننا فجيعة العرب بسيد العرب . لقد كان
منار رجائنا (معشر الشاميين) فانطفأ المنار .
لقد كان لنا مناط الأمل . لقد كان لنا كل شيء ... فـيا أهل
بغداد كلنا في المصيبة سواء .
وعلى غازي رحمة الله والسلام .

. . .

من دمشق الى « دير الزور » ..

كتبت سنة ١٩٣٩

اذا صح ان يكون في المدن سفراء ، فمدينة
الدير سفارة عراقية في الارض الشامية ، وما
دخلت الدير الا ذكرني العراق ، بظهورها
ومخبرها ، ولهجة اهلها - وما دخلت الموصل
الا ذكرني حلب . لذلك اثبت هذا المقال في
كتاب (بغداد) .

الى دير الزور^(١) ..

استعدوا يا سادة ، فقد اُزِف الرحيل ، وشدت الأهداج ، فودعوا
الأحبة والصحاب ان كنتم تطيقون الوداع ، وخذوا طريقكم الى (المرجة)
ففيها الموعد القدر .

وأسرعوا لا يشغلكم جمال الغداة ، ولا سيحور السحر ، وإث ملأ
السماء والأرض والنفس خشعة وفرحة وبهاء ، فحرام على ذي الاعمال ، أن
يفتنه عنها الجمل ...

(١) نقلت اليها مدرّساً في ثانويتها سنة ١٩٣٩ ، اثر حادث في المدرسة ، في حفلة
اقامت في ذكرى مولد النبي فاعتدي فيها على النبي صلى الله عليه وسلم ، فكان على يدي
نصرة الحق وخزي المعتدي .

ها نحن أولاء في (المرجة) ، وها هو ذا صوت المؤذن يمتشي في
الغضاء مشى البرء في الاجسام ، والطرب في الاعصاب ، فيكون لهذه
الدنيا نوراً وطهراً وعطراً ، وها نحن أولاء نصلي الصبح في (جامع بلبغا)
الذي سرق نصفه العثمانيون فجعلوه مدرسة ، كأن الارض قد ضاقت
بالمدرسة حتى ما يتسع لها إلا الجامع .

ولكن اللصوص لم يكونوا حذافاً ، ولم يستطيعوا طمس الآثار ،
فلسوا (المئذنة) لم يسرقوها فلبثت قائمة تشهد عليهم ، كشهادة
(منارة سوق الغزل) على أهل بغداد ، أنهم سرقوا (المسجد
الجامع) الذي كان قطب الارض ، وأكلوه ، وادعوا أنهم
مارأوه ...

وها نحن أولاء نخرج فنرى السيارة وعلمها الاحمال ، ولكن ما لها
لا تمتشي ؟

ألم يأن الأوائ ؟ ألم يؤكدوا لنا أن الرحلة الفجر ؟ لقد مضت
صف ساعة ، ومضت ساعة ، وملأت الشمس الدنيا ، وأمتع الضحى ،
هي واقفة ، ترقب أحد البكوات حتى يصحو وتفرك الجارية
جليه ويغتسل ويأكل ويلبس ويحيى متبخترآ . . . فلماذا منعونا نحن
لننام ، وألزمونا الحضور في القلص ، في برد كانون ، وقرّ الليل ؟

وما هذه الخصومات والمعارك ، وهذه الاقاظ الوسخة التي يقذف
بائعها ومعاونوه في وجوه الركاب ، لأنهم طالبوا بحقوقهم
الظلم ؟

وما اشركة (يون) الانكليزية تسير سياراتها كما تسير عقارب الساعة ،
لا يسبق عقرب ولا يتأخر ولا يقلقه شيء ؟

أكتب علينا أن نظل أبداً أهل خاف في المواعيد ، وكذب في
الاحاديث ، وفوضى في المعيشة ، لا نحن اتبعنا ديننا ، دين الصدق
والنظام ، ولا نحن قلدنا الاوربيين في فضائلهم ؟ ما قلدهم إلا في
الزائل والموبقات !

• • •

لقد دنا المسير ، ر (وغت) ^(١) السيارات ، فاستجدوا بقرائنكم
لتسمعكم بالقول المحلى واللفظ المسؤول ، واعتصروا العيون واستطروها
الدمع ، فما يجلو بغير الدموع الوداع ، وما وصفه شاعر إلا (زعم...) ^(٢)
أنه بكى ، فكان الشعراء ... إذا أزمعوا وداعاً وضعوا البصل في
هيونهم ... وإلا فكيف تجود بالدمع عند كل طلب كأنها (حنفيات) الحمام ،
أو كأنها مقل الحسان ؟

وخذوا مقاعدكم قبل أن يشتد الزحام . ولكن من أين ندخل وهذه
السلال والصرر والحقائب بين الازجل ووسط الممرات ؟

وما هذا الضيق في المقاعد ؟ هل هي رحلة دقائق من دمشق الى دمر ،
أو من مصر الى المعادي ؟

لأننا رحلة يوم كامل بليله واكثر من اربعه أفنمضيه محبوسين في هذا

(١) الرغاء للابل .

الصندوق ، مقيدن بالاصفاة ، لا نستطيع ان نحرك يداً ، ولا غد
ساقاً ، ولا نتلفت ؟

أنقارم الشركات الاجنبية ونحاربها بمثل هذه السيارات ؟
يا قوم إنكم بمثل هذا تجمعون الناس يترضون عن الاجانب ، ويلعنون
لاجلكم كل شيء وطني !

. . .

لقد جرت السيارة وباسم الله مجراها ومرساها ، ها هي ذي تخرق
شارع فؤاد الاول ، وتقطع شارع بغداد أخفهم شوارع دمشق وأطولها ،
الذي فتح من ربع قرن ولم يكن فيه إلا خمس بنايات ، لان البلدية
أرادت عمران دمشق ، فوضعت للبقاء فيه شروطاً لا يمكن معها البناء ،
إلا إذا قامت حرب عالمية ثالثة ، وصار كل الشاميين لصوصاً أي
(أغنياء حرب) . . .

لقد بلغنا (جسر نورا) فودعنا دمشق بنظرة أودعوها حبة
القلب ، وقراءة اللب ، فما تلقون إذا فارقتم دمشق مثل
دمشق ، وأين ؟

أين مثل فتوننا وسحرها ؟ وأين مثل ثقاها وطهرها ؟ أين قبة تنطع
النجم كقببها ؟ أين في الارض غوطة كغوطتها ؟ أين نهر يسيل شعراً
وفعياً كبرداها ؟

أين مثل ربوتها وشاذرواتها ، ومزنتها وميزانها ؟

أبن في الدنيا ربيع كربيها ، وزهر كزهرها ، وثمر كثمرها ،
وكروم ككرومها ؟

تزوّدوا منها بالنظرات تكن لكم في طريقكم زاداً ، وفي
غربتكم أنساً ...

.

هذه (دوما) قصة الغوطة فيما خمسة وعشرون الف ساكن قلّ فيهم
من يتفرغ للعناية بدار لذلك تروى دورهم زرية منخفضة السقوف ، ضيقة
الابواب ، وقل فيهم من يعتني بشوب أو يحرص على علم ، ما لهم هم إلا
الزراعة فهم أفدر خلق الله عليها ، واصبرهم على مكارها ، لانهم يشتغلون
لأنفسهم وذراريهم ، لا (بك) من البكوات ، ولا الحاجة من
الحواجات ، وقلّ فيهم من لا يملك قطعة من الارض ولو صغرت ، يمش
بها ولها ويمرت عنها ، ليس فيهم أسرة يستعبدها الملاك هذا الاستعباد (الحر) .
ويظلمها هذا الظلم (القانوني) . . فينظر اليها كما ينظر الى حميره وأبقاره ،
ويعاملها معاملة ، فيسكنها في مثل زرائها ، ويطعمها قريباً من طعامها ،
ولا يراها أعلى قدرأ منها ، يشغلها السنة كلها تكدي وتشقي ، لتقدم له ثمن
سكرة من سكراته ، أو ليلة (حمراه !) من ليلاته ، تربق عرق جباها
على أفدام عشيقاته ، وتبذل حيايتها ابتغاء مرضاته ، ثم لا تنجو من غضبائه
وتزواته !

إنما أرضهم هم ، وهم أصحابها ، ولذلك ازدهرت وأينعت حتى صارت
أجمل أرض في الوجود . فانظروا اليها من حولكم ، الى هذا البحر يروج

بالاشجار ، تتمايل اغصانها ، وتتعانق أفنانها ، تتوجها إذا جاء الربيع ألوان
الزهر ، فتكون ابتسامة الزمان على فم الثرى ، وتثقلها إذا حل الصيف
أنواع الثمار ، من المشمش عشرين نوعاً ، حبه كالتفاح استدارة وبهاء
لا كمشمس مصر الذي يشبه في صفوه حب الزيتون ، ومن التفاح اربعين
نوعاً ، والكثير عشرين ، والعنب خمسين نوعاً معدودة عدأ ، والدراق
والخوخ والجانرك والسفرجل والجوز واللوز والتين والزيتون والتوت أنواع
شتى وأشكال .

والى السواقي تسعى فيها تحمل الحياة من بردى الى هذه الارض المباركة ،
يميد على حوافها الحور ويرقص الصفصاف ، وتفساب عروق البطيخ
والشمام والقثاء والخيار ، وتضحك من حولها حقول القمح ، ومزارع
(الحضار ...) .

هذه هي الغرطة : بستان واحد ، مساحته اكثر من ثلاثئة مليون
متر مربع ، متصل الظلال ، متلاقي الاغصان ، كل شبر منه ثروة وجمال ،
وكنز لا ينفد على الإنفاق

لقد جازت (السيارة) دوما ، فانظروا اليها فقد كادت تحتفي مناراتها ،
كما اختفت دمشق إلا جبليها الخالدين ، قريعي الدهر ، حليفي الخلود : قبة
النسر من الاموي ، وهامة الصخر من قاسيون .

وهذي كروم دوما ، يضل البصر في رجاها^(١) ويقتصر عن
مداهها .

(١) الرجا : واحد الارجا .

فيا (العنب الدوماني) الذي سارت بذكره الركبان ، فمن لم يأكل منه لم يأكل عنباً إلا على المجاز ...

ولكنكم مررتم بالغوطة وكرومها في الشتاء ، فدهشتم وما رأيتم إلا حطبها ، فكيف لو جزتم بها الربيع فشاهدتم البهي من زهرها ، أو سلكتوها في الصيف فجنيتم الشهي من ثمرها ؟
اذن لقلتم : لا وب إلا الله ، ولا بستان إلا الغوطة ا

. . .

لم يبق الآن أمامكم الا الصحراء ، ولكن هذه الصحراء كانت يوماً من الايام سهولاً مبرعة ، وكانت اكثرها منازل عامرة ، وكانت تفيض بالحيوات وتزخر بالظلال ، ايام الملوك الغرّ العيشين سادة الدنيا ، بني أمية ، الذين حملوا راية الاسلام الى اقصى المشرق والى اقصى المغرب ، من اطراف الصين الى أواسط فرنسا ، فنصبوها على قبة الفلك ، ودعواها بالعدل والنبيل والفضل ، فما كانوا فاتحين كالفاتحين ، يغلبون بالقوة ، ويملكون بالسطوة ، فان زالوا زالت آثارهم ، ولكن كانوا مجاهدين ، وكانوا بانين ، وكانوا عبقرين ، فجعلوا هذه البلاد كلها اسلامية عربية الى يوم القيامة . وكان لهم الفضل على كل مسلم ، في هاتيك الاقطار حتى تقوم الساعة .

رحمهم الله ، وغفر لمؤلاء المؤرخين ، الذين حاولوا ان يتقربوا الى اعدائهم ، باطفاء هذه الشمس التي بهرت العيون ، فجمعوا غبار الطرق

وجعلوا ينفخونه عليها حتى تمزقت صدورهم ، والشمس ساطعة لم تنطفئ .
ومن ذا يطفىء نور الشمس في رآد الضحى ؟

غفر الله لهم ، فقد جعلوا هذه المدينة لما نزلوها سيدة المدائن ، ورفعوا
قدورها حتى ذلت لها ناورند ، ودانت قرطبة ، وخضعت سمرقند ، وطاطات
لها القسطنطينية ، فأضعنا نحن من بعدهم عزها .

إن الأرض تعمر أبداً وبلادنا تمشي الى الخراب .

إنكم ستعمرون الليلة على المدينة التي قارعت روما يوم كانت روما عاصمة
الأرض ، وثأزعتها مجدها وسلطانها ، فلا ترون في مكاننا إلا قرية اسمها
(تدمر) ، أفرايتم كيف تمشي الى الوراء ؟

إن ديار الشام التي يسكنها اليوم بساحلها وداخلها ، وشمالها وجنوبها ،
خمسة ملايين كان فيها يوماً من الأيام خمسة وعشرون مليوناً^(١) . وكان في
العراق مدينتان متجاورتان ، في كل منهما مليونان ، وأهل العراق كله
اليوم خمسة ملايين . وإن بين هاتين المدينتين اليوم على الطريق جسراً
قائماً في الفلاة ، كان تحته نهر اسمه دجيل ملاً الشعراء بذكره
الاسماع ، يسقي مدينة اسمها حرثي ، زخرت بأخبارها صحف التاريخ ،
فحييت المدينة ، وجف النهر ، ولم يبق إلا جسر قائم في الفلاة .

(١) هذا كلام يتناوله الناس وقد كنت أقول به يوم كتبت هذا الفصل ، ولكنني تبعت
الآن انه غير صحيح ، وإن في الشام اليوم من السكان أكثر مما كان فيها في كل
وقت مضى .

وكانت في البصرة عشرة آلاف قناة ، فلم يبق فيها اليوم إلا مئة
وغانون قناة .

نعم لقد عدنا الى الوراء ولكن عهد التأخر قد انقضى .
لقد وقفت القافلة تجمع شتاتها ، وتعد عدتها ، لتمشي في طريق المجد كما
مشى الأجداد ..

لقد عرفتنا المصائب في فلسطين والمغرب ومصر والشام ، أن الطريق من
هنا : من الشرق . .

من الشرق يطلع فجر الخلاص ، أما الغرب فلا يجيء منه إلا ليل الظلم
وسواد الاستعمار ...

هذه حقيقة تدرس في المدارس الأولية ، ولكن في الناس جهلاء لم
يتعلموها بعد !

. . .

يا إخواننا . إن هذه السفرة ستعلمكم الصبر .

إنكم ستتحذثون حتى تملأوا الحديث ، وتسكنون حتى تكبرهوا
السكوت ، ونأكلون حتى تعافوا الأكل ، وتجرعون حتى تشتهوا
الطعام ، وتنامون حتى تشبعوا من المنام ، وتستيقظون حتى تتمتعوا
المهجوع ، وأنتم محبوسون في هذا الصندوق ، مصفدون بالاعلال ،
فأين هذا من رحلات الأجداد على الإبل ، يستمتعون بالحرية والانطلاق

لن ؟ تقولون أنكم اختصرتم الزمان ... وماذا في اختصار الزمان ؟
في سراع إلى القبر ؟

أنكم تشكون والسيارة تمشي لكم على الطريق الآهلة ، وأنتم تقومون
كلوت وتشربون ، ففكروا في بطل الدنيا سيف الله (خالد)
سحبه : كيف قطعوا هذه البادية على الإبل لا يمشون على طريق ،
يجدون ماء ولا زادا كافيا ، والعدو يحيط بهم ، فلما وصلوا إلى الشام
تسلوا ويمدوا أرجلهم ... ولكنهم نازلوا جنود سيد الكتائب قيصر ،
يعوان منه الظفر ، وأخذوا منه البلاد ، فبقيت خالصة لامة محمد ، لن
غيرهم أبداً ، لا للأنكليز ولو غلبوا عليها حيناً ، ولا لليهود ، ولا
كان ...

لنك هم الرجال حقاً !

. . .

فهذي هي الدير ، تبدو مناراتها من وراء البادية ، كما تبدو
، وراء البحر ، فحث الخطى يا أيها السائق ، واسقها (البنزين) ،
سفر ، ونفذ الصبر ، واشتد الشوق ...

لم ما يكون الشوق يوماً إذا دنت الخيام من الخيام

هي الدير قد وضعت ، أفلا تحسون أنكم مقبلون على مدينة

عراقية ، أليس لمنازلها وشاقة مأذن بغداد ، وإن لم يكن لها
نوبها المزركش الذي تخطر فيه ، وتاجها الذهبي الذي تلمس تحته . أليس
فراتها هو الفرات الذي يجري في العراق وإن لم تزن كتفيه الروابي
المخضرة ، ولم يستقم فيه النخيل ، ولم ترح على صفحته الزوارق
الشعرية ، ولم يؤكل في القهوات المطلة عليه السمك المسقوف ؟

هذي هي الدير ، فدعوني يارفاق أفارقمم لاحت القراء (حديث
الدير) ... فان هم من لم يسمع من قبل باسمها !

★ ★ ★

وداع بغداد

كتبت سنة ١٩٣٩

الوداع يا بغداد .

يا بلد المنصور والرشيد ، والنعمان واحمد ، والكرخي والجنيد ،
والي نواس والعباس ، ومخارق واسحاق ، ومطيع وحامد .

يا منزل القواد والخلفاء ، والمحدثين والفقهاء ، والزهاد والأتقياء ،
والمغنين والشعراء ، والمجان والظرفاء .

يا مثابة العلم والتقى ، واللهو والفسوق ، والمجد والغنى ، والفقر والحمول
يا دنيا فيما من كل شي .

الوداع يا دار السلام ، ويا موئل العربية ، ويا قبة الاسلام .

يا بلداً أحببته قبل أن أراه ، وأحببته بعد ما رأيته . . . لقد عشت
فيك زمناً مرّ كحلم النائم ، صحت منه على صوت الداعي يؤذن بالفراق ،
فلم أجد منه في يدي إلا لزع الذكرى .

وهل تخاف الاحلام يا بلدُ إلا الاسى والآلام ؟

ولكنني على ذلك راضٍ راضٍ فالوداع يا بغداد واسلمي
على الزمان !

. . .

ودعنا والسيارة تشتد بي الى المحطة تسلك اليها شوارع ذات بهجة
وجمال ، شبهتها (المحطة غايتها) بليلي الحب كلها أنس وحلاوة ، ولكن
نهايتها وسشة الوحدة ومرارة الفراق . وغابت الوداع فأيقنت أنني
مفارق بغداد عما قبل ، وأني سألتفت فلا أرى رياضها ولا أرباضها ،
ولا أبصر دجائها ولا نخيلها ، وهجرى لساني بقول الاول (وإن من الاقوال
ما لا قبلي جدته ولا يمضي زمانه) :

أقول لصاحبي والعيس تهوي	بنا بين المنيفة فالضمار
تمنع من شميم عرار فجد	فما بعد العشية من عرار
شهور قد (مضين) وما شعرنا	بأنصاف لمن ولا سرار
فأما ليلن فخير ليل	وأطيب ما يكون من النهار

وجعلت أذكركم ودعت من احباب ، وكم فارقت من منازل ، وكم
قطعت قايي نطعاً ثرتها في ارض الله الواسعة التي لا تحفظ ذكرى ،
ولا تروني لبائس .

ورأيتني لا أكاد أستقر في بلد حتى تطرحني النوى في آخر ، كنبئة
لا تسكاد ترسخ في تربة وتمد فيها جذورها حتى تقلع وتنقل الى
تربة أخرى .

رأيت أني دخلت بغداد يوم لم يكن قد جاءها أحد من أصحابي
فلبثت فيها وحيداً مستوحشاً ، لا أعرف منها إلا المسجد ، وما كان
لمسلم أن يرى نفسه غريباً في بلد فيه مسجد ، ولكنها العاطفة الضعيفة
المتأففة ، فلما ألفتها وصارت بلدي ، وغدا لها في قلبي مكان
نقيت عنها ...

دخلنا كارهين لها فلما ألفتها خرجنا (مكروهينا)

وفكرت في امري متى ألقى رحلي ، ومتى أحل حقائي ؟ وهل
كتب عليّ أن اطوف أبدأ في البلاد ، وأعيش غريباً وحيداً بعيداً عن
اهلي وكتبي وصحبي ؟

وهاجت في رأسي الحواطر السود ، وماجت ، حتى لقد رأيت
الشوارع الحالية بالزهر صحراء مجدبة ، ورأيت شعاع القمر المضيء
مظلماً خائباً .

ومن طوّف تطواني ، وأقبل مثلي على بلاد ما لها في نفسه صورة ،
ولاله فيما صديق ، وفارق أهلاً إليه احبة ، وصحباً عليه كراماً ، ومن
كانت حاله كهالي ، عرف صدق مقالتي !

. . .

وصفر القطار وسار ، وطفقت ألوح بمندلي لصديقي الاثريين
أنور وحسن^(١) ، حتى واراها عني الظلام ، فنظرت حولي فإذا أنا

(١) انور المطار وحسن القواف .

وحيد في الحرية الفضة ، لا انيس ولا جليس ، فكرٌ فكري راجعاً
الى بغداد .

بغداد ، يا مهد الحب ، يولد الحب على جسرِكَ الذي نحرسه (العيون) ،
وينمو في زوارقك ذات الالوان البيضاء البيض التي تحقق كلفات قلوب
اكبها ، ويشب في كرخك وتحت ظلال نخيلك .

فتشوا ، كم تحت هذا الترى من بقايا القلوب التي حطمها بسهام (العيون) ،
هذا الخالق الجبار ، الذي ولد على الجسر مثابا ، وعا في الزروق ، واكتفى
في الكرخ ، ثم لم يمت لانه من ابناء الخلود .

سلوا ارض بغداد : اعددا خبر من شهداء الفرام ؟

سلوا جورّ بغداد : أين النغمات العذاب التي عطرت نسيمه بعطر الجنة ،
فمزت قلوبا ، وهاجت عواطف ، واضحكت وابكت ، وأمانت واحيت .
هل أضمت ويحك هذه الآرواح التي لا تعرض ؟

سلوا الجسر .. يا (جسر بغداد) إن ما بقي من حديثك قد ملا
كتب الادب ، حتى لم يعرف الناس سواك للمواطف والافكار والعبر
اكبر من جسر بغداد ، فأين سائر اخبارك ؟

كم ضمت ذراعيك على عشيقين فنعما بينهما بلذة الحب ؟

وكم تركت حبيباً ينتظر فلا يرجع بعد الانتظار إلا بالحجبة والامس !
وكم عطفت على بائس منكود ، واعرضت عن منكود بائس
فأريت الاول من مشاهد الحياة ما هوّن عليه ما هو فيه ، وزدت الثاني
بؤساً ونكداً .

وكم رعبت من أمرار الحب والبغض ، والفرح والحزن ، والغنى والفقر ،
والهزة والذل ، وكل ما تحتوي الحياة وتشغل النفس من ألوان ؟

كم رأيت من حصاد الأدمغة وثمرات القلوب ؟

كم مدت^(١) تحت أقدام خليفة كانت تصفي له الدنيا إذا قال لأنه
ينطق بلسان محمد ، وفائد كانت تخضع له الامم اذا مدار لأنه يابوع
بسيف محمد ؟

يا (جسر غازي) الجديد ، الهائل العظيم ، أعندك نبأ من ذلك
الجسر الذي كان شاهاً من العوالم ؟ والذي كان سُرّة الدنيا وقطب
وعساها ؟ وكان للجسد إذا جدد الجدد ، وللهزل اذا جاز الهزل . فحوى الجسد
من أساسه ، وجمع المتعة من اطرافها ؟



وهذه المناورة المنصنية المائلة في (سوق الغزل) تنظر بعيني
أم تكلى . . . ماوها أين مسجدتها الذي كان يضيق على سمعته
بالمصلين ، حتى تمتد الصفوف الى الشارع ثم تتالى حتى تبلغ
للنهر^(٢) ؟

أين أولئك العلماء الذين أتوعوا الدنيا علماً ، وملاؤوا آفاق الارض
نوراً وهدى ؟ أين مواكب الخلفاء حيث . . .

(١) من : ماد عبيد .

(٢) كذلك قال التاريخ .

الحيل قصيل والفوارس تدعى والبيض تلمع والاستة تزه

ومشيم في رحاب بيت الله ...

... مشية خاشع متواضع لله لا يزهي ولا ينكبر

أين فرسان المناير وأبطالها ؟

أين جيران الحاريب وجلاتهم ؟

أين ... أين ... ؟

يا أسفي ! لقد سرق المسجد ، وهدم المنبر ، وضاع المهراب ، ولم
تُحفظ الحجارة يا بغداد ما ترك ومضاملك ، ولا وعت الأرض ذكريات
حبك ، ولا أبقي الجوز رفات عيوانك ... أهلا حفظنا قلوب أفسم
أصحابها انهم ذاكروا هديك وأنهم مرجعوا نجدك ؟

فأين مسجد بغداد الجامع يا مديرية الاوقاف ؟

أين المسجد يا إدارة الآثار ؟

أين المسجد يا من اتخذتم المسجد بيوتا ودكاكين وتوكنتم المنسابة
منعنية عليه تبكي !

أين المدرسة النظامية يا من أقمتم على انقاضها سوق الشورجة لتبيعوا
فيه البصل والثوم وقد كانت تباع فيها حيوات النلاء وعصارات
عقولهم وقلوبهم ؟

لا تخزني يا بغداد واصبري فان كل شيء يعود ما بقي في القلب إيمان ،
وفي الفم لسان ، وفي اليد حنان

. . .

وتلفت ورائي ، فإذا بغداد قد اختفت وراء الأفق ، وغابت
صوارب الاعظية التي تحاذي النهر ، تمكشفت تارة فتضيء ثم تختفي في
ظلال النخيل ، كشاعر منفرد متأمل ، او محب مهزّول ، يناجي طيف
الحبيب ، ويسامر ليالي الوصال التي تارح له صورها . والنهر يطلع عليها
مرة بصفحة البيضاء المشرقة التي تشبه أمنية بدت لحلم ، ثم يحجبها عنها
النخيل ، ويمحوه الظلام كما تمحو الحياة بواقعها الاحلام ولطمس
صرو الاماني ...

وغابت شوارع الصاحبة ذات الفتنة والجلال ، وغابت المآذن الرشيقة ،
وغابت القباب ... وبقيت انا والماضي !

هذا الماضي الذي طالما قاسبت منه ، وطالما كابدت ، ثم كلها أوغلت
به انحداراً في اوراق نفسي ، ردفنته في هرة الذكرى ، وقلت مات ،
ماد حياً كاملاً تثيره نغمة ، وتهببه صورة ، ويبعثه بيت من الشعر ..
فبعت بحياته آلامي .

غابت بغداد ، فسلام على بغداد .

واشهدوا أنه ما بعد دمشق بلد أحب إليّ من بغداد ، و
العتابا نفعة أوقع في قلبي من الابودية ، ولا بعد الحور شجر أجمل في عيني
من النخيل ، ولا بعد بردى نهر أعز على نفسي من دجلة .

أستغفر الله ! إلا حَرَمَ الله ومدينة نبيّه ، فهما والله أحب
البلاد إليّ ، وماؤهما ألد المياه في في ، وشجرهما أبقى الشجر
في بصري . .

السلام عليك يا بغداد وعلى ساكنيك السلام ...



تصويب

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٩٨	٣	تسلّمها	تستلمها
١٠٠	١٢	عجبة	عجوبة

آثار المؤلف

كتب نفذت

- | | | | |
|-------------------------------|---------|-----------------------|---------|
| ١- رسائل الاصلاح | ١٣٤٨ هـ | ٥- في التحليل الادبي | ١٣٥٣ هـ |
| ٢- بشار بن برد | ١٣٤٨ هـ | ٦- صهر بن الخطاب جزآن | ١٣٥٣ هـ |
| ٣- رسائل سيف الاسلام | ١٣٤٩ هـ | ٧- كتاب المحفوظات | ١٣٥٥ هـ |
| ٤- الهشيبات | ١٣٤٩ هـ | ٨- في بلاد العرب | ١٩٣٩ م |
| ٩- من التاريخ الاسلامي ١٩٣٩ م | | | |

كتب صدرت حديثاً

- | | | | |
|-----------------------------|---------|----------------------------|--------|
| ١- أبو بكر الصديق (طبعة ٢) | ١٣٧٢ هـ | ١٢- هتاف المجد | ١٩٦٠ م |
| ٢- قصص من التاريخ | ١٩٥٧ م | ١٣- من حديث النفس | ١٩٦٠ م |
| ٣- رجال من التاريخ | ١٩٥٨ م | ١٤- الجامع الاموي | ١٩٦٠ م |
| ٤- صور وخواطر | ١٩٥٨ م | ١٥- في اندونيسيا | ١٩٦٠ م |
| ٥- قصص من الحياة | ١٩٥٩ م | ١٦- فصول اسلامية | ١٩٦٠ م |
| ٦- في سبيل الاصلاح | ١٩٥٩ م | ١٧- صيد الخاطر لابن الجوزي | |
| ٧- دمشق | ١٩٥٩ م | (تحقيق وتعليق) | ١٩٦٠ م |
| ٨- أخبار عمر | ١٩٥٩ م | ١٨- فكر ومباحث | ١٩٦٠ م |
| ٩- مقالات في كلمات | ١٩٥٩ م | ١٩- مع الناس | ١٩٦٠ م |
| ١٠- من نفحات الحرم | ١٩٦٠ م | ٢٠- بغداد | ١٩٦٠ م |
| ١١- سلسلة حكايات من التاريخ | ١٩٦٠ م | | |

الفهرس

صاحبة

٥	فلم بغداد
١٦	من دمشق الى بغداد
٢٤	سُرَّ من رأى
٣٨	على ابران كسرى
٤٧	ثورة دجلة
٥٧	صورة ...
٦٠	يوم الفتوة في بغداد
٧٠	من ذكريات بغداد
٨٠	يوم من أيام بغداد
٩٠	تحية وشكر
٩٥	نوري السعيد
١٠٢	نداء لم يجد مجيباً
١٠٩	ثورة تموز في العراق
١١٧	صورة سوداء من بغداد
١٢٤	الذكرى والتاريخ : بغداد في يوم غازي
١٣١	الذكرى والتاريخ : يا غازي عليك رحمة الله
١٣٩	من دمشق الى « ديو الزور »
١٥٠	وداع بغداد